تقديم إلى مقام إمام العصر والزمان المهدى المنتظر﴿عليه السّلام﴾

قبيلة الرحمة

(الخارطة الإلهية العامة فى دعاء الندبة)

اسماعيل شفيعى سروستانى

كَافَّةُ حُقُوق الطّبع وَ النَّشرِ وَ التَرجَمَةُ مَحفُوظَة لِلنَّاشِر

«موعود العصر(عج)»

لصاحبه

اسماعيل شفيعي سروستاني

ترجمة:

كاظم شماعيان

الطّبعَة الأولى

١٤٣٥ هـ - ٢٠١٤ م.

ايران ـ طهران ـ شارع ولى عصر ـ شارع الشهيد دانش كيان ـ رقم ٣٣

ص ب ٨٣٤٧ ـ ١٤١٥٥

هاتف: ٨٨٩٤١٣٣٧ - ٠٢١ (٠٠٩٨)

٨٨٩٤١٢٣٥

فاكس: ٨٨٩٤١٤٠٢

الفهرس

مقدمة..... ٧

الفصل الأول: شأن الأدعية و الزيارات..... ٩

الفصل الثاني: قبيلة صبغةالله ١٥

الفصل الثالث: تجاوز الأمة الواحدة..... ٢٤

الفصل الرابع: التاريخ المنسي..... ٢٧

الفصل الخامس: قاعدة الإستبدال ٤٠

الفصل السادس: المُبشرّ..... ٥١

الفصل السابع: نبي الرحمة ٧٥

الفصل الثامن: فصل الظهور ١٠٧

مقدمة

تعد الأدعية والزيارات من أكثر المصادر الاسلامية والشيعية بعد القرآن الكريم، ثراء و حقيقة، ورغم بقاء مكانتها مجهولة فانها وبسبب إتصالها و إستنادها إلى المصادر المتقنة والحيوية للمعصومين، تنطوي على أسمى المضامين حول المبادئ و الأسس النظرية الدينية حول العالم والانسان وأمتن المعرفة حول منشأ الكون و وجهته و أكثر الكلم حكمة حول الوجود والسير في ميدان التاريخ.

و بما أن المعصومين، كانوا وفقا للظروف التاريخية والموقع السياسي و الاجتماعي الخاص بزمانهم، مضطرين للإفادة من «أدبيات خاصة» على هيئة أدعية وزيارات، كما وفي ظل ضرورة حفظ «الأدب الخاص» أثناء التضرع والدعاء إلى الله تعالى، اختاروا شكلا مختلفا لكلامهم، و بالتالي و بسبب غفلة المسلمين عن موقع و طاقات هذه المصادر، فان الأدعية و الزيارات خرجت عمليا عن صف المصادر النظرية و الدراسات الثقافية و المعرفية و تحولت إلى مجرد مجموعة من أدعية و زيارات و تعليمات لتكريم أيام و مناسبات خاصة.

إن دراسة الأدعية والزيارات والتعمق فيها من وجهة نظر الدراسات الثقافية، يجعلنا ننتبه إلى قسم كبير من الطاقة والثراء الكامن في هذه الأدعية والزيارات

ضمن «عبارات دعائية»، وهو جل ما يبحث عنه الباحثون في «حكمة التاريخ» و «التقاليد و القواعد السائدة في الثقافات و الحضارات» و «النظريات السياسية و الاجتماعية للمنظرين» تارة، و يأملون أن يتوصلوا من خلال السير و السلوك و طي المراتب المعرفية لفهم الساحات الانسانية بدءا من فرش الشيطان وصولا إلى عرش الرحمن تارة أخرى.

ومن هنا، فان هذا الكتاب، يلقي الضوء على عبارات مختارة من دعاء الندبة، ويذكرّ ب«الخارطة الإلهية العامة» و «المنعطفات المصيرية في حياة البشرية» و «النظام المعرفي الولائي» المبني على «الخلقة النورية والروحية» و يقدم أرضية مختلفا لنقد ودراسة النظريات التي وضعها في العصر الحديث علماء علوم الأحياء والعلوم التربوية والاجتماعية بمن فيهم سيغموند فرويد وتشارلز داروين و آخرون.

إن فتح هذه النافذة على الأدعية والزيارات، يتيح المجال لإدخال هذه المجموعة الولائية الضخمة في فئة المصادر والمراجع المهمة للدراسات الثقافية.

و أقدم هذا الكتاب، إلى إمام المتقين، أميرالمؤمنين(ع)، عسى أن يحظى بقبول هذا الإمام السند للمستضعفين والمحرومين، إن شاءالله.

١٤ رجب ١٤٣٤

٢٥ مايو ٢٠١٤

إسماعيل شفيعى سروستانى

الفصل الأول: شأن الأدعية و الزيارات

لقد جعل المعصومون من تعليم وتربية الشيعة، و جهتهم و هدفهم الرئيسي إبان حكم بنيأمية وبني العباس، وبسبب غياب الظروف والمتقضيات اللازمة لحماية الكيان الثقافي للشيعة و شيعة المحمّد(ص)، فقد سعوا جاهدين لتفسير و تبيان الأصول و الفروع العقائدية الولائية الشيعية وتخزين طاقة أهل الولاية للوقت والزمن المعلوم و المقدر.

و يمكن إعتبار «الأدعية المأثورة» بانها أكبر وأثرى المصادر «الحِكَمية و اللاهوتية والأخلاقية» للمعصومين، وتكتسي آلاف الاستراتيجيات للوجود و الحياة على امتداد التاريخ حتى موعد الظهور الأكبر لدولة الحق.

وحسب البيت القائل:

من الأفضل أن يذاع سر الأحباء على لسان الآخرين

فقد بين المعصومون، أربع فئات مهمة من الموضوعات الرئيسية في سياق الأدعية. وكانت هذه الطريقة هي الضمان لحفظ هذه المجموعة، لان لا أحد كان ينظر إلى الأدعية بمنظار الموضوعات الإستراتيجية. ومن جهة أخرى فان نوع الكلام و البيان، نظم بطريقة كان من غير الممكن أن يفهمه الخلفاء الأميون و أنصارهم من عديمي العقل.

إن سر بقاء و خلود هذه الأدعية، وبعد العناية الإلهية، يعود في جانب منه إلى هذا الموضوع المهم. وللأسف فان الشيعة وعلى غرار الخصوم، نظروا إلى هذه الأعمال المهمة من منظار «أدعية أهل الخلوة» وبمنأى عن التفكير و اتخاذ موقف ضد أئمة الكفر. ولهذا السبب لانرى أثرا لهذه الأعمال في أي من مراكز الدراسات الثقافية و مراكز الدراسات الاستراتيجية و مراكز صنع القرار العامة والفروع الدراسية (العلوم السياسية و الحقوق و العلوم الاجتماعية والكلام و الفلسفة و التاريخ و ...)

و بينت في كتاب «من قمة عاشوراء و حتى بحر الظهور» دقائق من «زيارة عاشوراء». إن هذه الأدعية تطرح في الحقيقة أربع ساحات رئيسية من حياة الانسان في الكون بدءا من فرش الشيطان وصولا إلى عرض الرحمن، و تبين موقع ومكانة الانسان المؤمن و الانسان الكافر و تشرح حسب السنن الإلهية، كيفية السر و السلوك في التاريخ و عبور جميع المراتب حتى الوصول إلى أعلى مرتبة للقرب إلى الله. إن التبيان فوق المكاني و فوق الزماني، يزيد من طاقة هذه الأدعية والإنطباعات التي تحتويها ويوسع نطاقها من الزمان الفاني حتى الزمان الباقي (أبدالآباد).

إن سمو الكلام وثراء المفاهيم والذوق الرفيع والمفردات والأدب الشاعري في هذه الأدعية، يشكل دليلا دامغا على التعرف على أصحاب هذه المفردات ونسبتهم للساحة القدسة المتعالية.

إن المراتب العليا والعرفانية والذوقية لهذه الأدعية، خاصة بها، وأن سائر الناس في ألف رتبة أدنى من المعصوم(ع)، وكل حسب دركه وفهمه وانطباعه، ينال حصة من كل هذا. إسمحوا لي القول أنه كلما كانت نسبة العباد من أصحاب المعرفة مع هؤلاء المعصومين رفيعي المقام والشأن الذين تجاوزا مرتبة «قاب قوسين»، أكبر أزيحت الستائر أكثر عن هذه الأدعية و تتكشف دقائقها.

و على الرغم من أن «دعاء الندبة» يمثل دورة كاملة لتعليم الموضوعات العقائدية، لكن ما يميز هذا الدعاء عن سائر الأدعية ويؤدي إلى أن أعتبره أحد المصادر الرئيسية للدراسات الثقافية ومعرفة حكمة التاريخ، هو رسم التيارات الرئيسية الجارية في التاريخ منذ بداية الخلقة وحتى عصر الظهور وقيام القيامة الكبرى. لذلك فان دعاء الندبة، هو دعاء الهداية الذي ينطوي على الواجب التبياني والخارطة الإلهية العامة.

كما أن الوجهة العقائدية لهذا الدعاء نابعة من الخارطة الإلهية العامة المرسومة فيه. إن سلسلة صبغةالله هي في عهدة الله تعالى ومتحررة من جميع التعهدات السارية، في حين أنها تعتبر نفسها منتمية بوفاء إلى ذلك العهد مباشرة. إضافة إلى حجة «كلامالله» الذي لابديل له ما جعلهم يستغنون عن الرجوع إلى سائر «المصادر» غيرالوحيانية، في حين أن العناية الربانية، جعلتهم يتصلون عن طريق ملائكة الرحمة بمصدر الغيب وحفظهم من الترديد والشك والخطأ. إن هذه السلسلة مدعومة بالتأييدات الإلهية، تحمل المعرفة الوحيانية والعلم الحضوري والشهودي من دون وسيط، ولكونهم يحظون بمقام القرب، فانهم أصحاب أعلى درجات الكمالات الإلهية و بالتالي يملكون حق التصرف باذن الله. وكل هذا، أثبت مقام «الولاية» لديهم و فرض طاعتهم على سائر عبادالرحمن بل أوجبه.

لائحة المستضعفين الإتهامية

منذ اليوم الأول من خلقة آدم(ع) و بعده ذريته، كان ثمة تياران وسلسلتان أحداهما نوارنية والأخرى ظلمانية على وجه البسيطة. و حسبما يقول مولانا:

إن هذا الماء العذب وهذا الماء المالح

يجريان فى عرقين منفصلين فى الخلائق حتى يُنفخ فى الصور[١]

فجماعة تسلك المسار النوارني والحلو و بالطعم و النكهة و الصبغة الإلهية ونجت من الظلمة وجماعة تسلك المسار الظلماني و تتسم بالصبغة الشيطانية لكنها انضمت إلى قبيلة النور هربا من الظلام. و جعلت الجماعة الأولى «الله» وليها فيما اتخذت الجماعة الثانية من «الشيطان» وليا.

«اللّهُ وَلِيُّ الّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَ الّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُمْ مِنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُولَئِکَ أَصْحَابُ النّارِهُمْ فِيهَا خَالِدُونَ.»[٢]

إن تياري الهداية و الضلال طيلة التاريخ، هما كمعين ماء عذب و نبع ماء مالح، يسيران منذ بداية الخلقة و حتى النفخ في الصور. و هذان الإثنان لايلتقيان أبدا و كل منهما يستقطب حسب نوعه و تجانسه، الأفراد و التيارات التي تشاطره الإتجاه و الموقف.

أصحاب الظلام يجتذوبون أصحاب الظلام

و أصحاب النور يجتذبون أصحاب النور

إن المنتمين إلى قبيلة النور والفلاح، ينهلون من نبع الماء العذب و يرثون تعاليم الأنبياء الإلهيين والآيات السماوية، وفي المقابل فان المنتمين إلى قبيلة الظلام و الشرّ يشربون من نبع الماء المالح والضلال ويرثون من إبليس اللعين و الطاغوت.

الصالحون يرثون من المعين الذى لاينضب

و ما ذلک الميراث؟ أورثنا الكتاب[٣]

---

١. الدفتر الأول للمثنوي، حكاية ملك اليهود.
٢. سورة البقرة (٢)، الآية ٢٥٧.
٣. الدفتر الأول للمثنوي، البيت ٧٥١.

لذلك:

الكل يرتبط و يتصل بكوكب

و المتصل بكوكبه يتسم بطابعه

و إن كان طالعه مرتبط بالزهرة

فان توجهه العام سيكون نحو العشق و الطرب

و إن كان مريخى وسفاك للدماء

فانه يبحث عن الحرب والبهتان و الخصومة

إن الألوان الزاهية تنبع من مصدر الصفاء

و الألوان القاتمة تنبعث من الظلام و الجفاء

وقد نظم الإمام الصادق(ع)، لائحة المظلومين الإتهامية في سياق «دعاء الندبة الشريف» ويقدمه لحضرة قاضي القضاة والحكيم المتعال و محضر الوجدان الحي للأناس الحكماء. و تقرر «لائحة الاتهام الشريفة» هذه بان مصدر و مكان تدفق الماء العذب هو أهل الولاية و المتمتعين بصبغةالله و مصدر التيار الظلماني، يتسم ب«لعنةالله» وأن السير و السفر الطويل لهذين التيارين قائم حتى النفخ في الصور و قيام القيامة الكبرى.

و بناء على ما ورد في الروايات والتفاسير، فان القصد من «صبغةالله» في الآية المباركة:

«صبغةالله وَ مَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللّهِ صِبْغَةً وَ نَحْنُ لَهُ عَابِدُونَ.»[1]

هو الإسلام أو العهد الذي أخذه الله على الناس في عصر بدء الخليقة والكون حول ولاية علي(ع). و يقول الإمام الصادق(ع) في هذا الخصوص: إن المقصود

---

۱. سورة البقرة (۲)، الآية ۱۳۸.

من صبغةالله هو الاسلام.[١] و يقول عليه‌السلام في رواية أخرى: إن المراد هو ولاية الإمام علي(ع) وهو العهد الذي أخذه الله في عالم الذر و الميثاق على الناس.[٢]

إن صبغةالله هى ذلک اللون اللطيف

و لعنةالله هى رائحة ذلک اللون القبيح[٣]

و كان المعصومون، يحذرون أتباعهم دائما من شرور الأهواء النفسانية و وساوس الشيطان. والدين الإلهي عُبر عنه في التفاسير ب«حبل‌الله، فطرة الله، صبغةالله» و المراد من الصبغة يمكن أن يكون الطهارة و فطرة الانسان السليمة التي تأخذ تدريجيا وتحت إيحاءات و معتقدات و قناعات الأب و الأم الملونة، لونا و صبغة أخرى.

إن اللون الباقى، هو صبغةالله وحدها

و ما عداها معلق على الجرس

لون الصدق ولون التقوى واليقين

و يبقى على العابدين إلى الأبد[٤]

١. الكافي، الكليني، ج ٢، ص ١٤؛ دارالكتب الاسلامية، طهران، ١٣٦٥.
٢. «تفسير العياشي، العياشي، محمّدبن مسعود، ج ١، ص ٦٢، المطبعة العلمية، طهران، ١٣٨٠.
٣. «التفسير» ابوالفتوح الرازي، ج ٢، ص ٢٨٩.
٤. مثنوي، ج ٣، ص ٥٤٥.

الفصل الثانی: قبیلة صبغةالله

و بعد أن یثني الإمام المعصوم(ع) علی الله ویحمده في «دعاء الندبة الشریف» لتکریمه طائفة «صبغةالله» ومن یحملون لونا إلهیا واستخلاصه لأولیائه ویقول:

- اَللّـهُمَّ لَکَ الْحَمْدُ عَلی ما جَری بِهِ قَضاؤکَ فی اَوْلِیائِکَ...؛
- الَّذینَ اسْتَخْلَصْتَهُمْ لِنَفْسِکَ وَ دینِکَ؛
- اِذِ اخْتَرْتَ لَهُمْ جَزیلَ ما عِنْدَکَ مِنَ النَّعیمِ الْمُقیمِ الَّذی لازَوالَ لَهُ وَلاَ اضْمِحْلالَ؛
- بَعْدَ اَنْ شَرَطْتَ عَلَیْهِمُ الزُّهْدَ فی دَرَجاتِ هذِهِ الدُّنْیَا الدَّنِیَّةِ وَزُخْرُفِها وَ زِبْرِجِها؛
- فَشَرَطُوا لَکَ ذلِکَ وَعَلِمْتَ مِنْهُمُ الْوَفاءَ بِهِ؛
- فَقَبِلْتَهُمْ وَ قَرَّبْتَهُمْ؛
- وَ قَدَّمْتَ لَهُمُ الذِّکْرَ الْعَلِیَّ وَ الثَّناءَ الْجَلِیَّ؛
- وَ اَهْبَطْتَ عَلَیْهِمْ مَلائِکَتَکَ؛
- وَ کَرَّمْتَهُمْ بِوَحْیِکَ؛
- وَ رَفَدْتَهُمْ بِعِلْمِکَ؛
- وَ جَعَلْتَهُمُ الذَّریعَةَ اِلَیْکَ وَ الْوَسیلَةَ اِلی رِضْوانِکَ.

إن تيـار «صـبغةالله» الجـاري بـين الأوليـاء فـي عهـدة الله الـرحمن، ملتـزم ب «الزهد في الدنيا» ليكون في جماعة المقربين ويتحرك ب «النعم التـي لا تـزول» و «الملائكـة التـي تهـبط» و «الكتـاب السـماوي» و «علـم الـوحي» مـن دون خـوف ووجل، نحو عباد الله ليصبح دليلا و مرشدا لهم لإيصالهم إلـى الجنـة ومعين الرحمـة واللطف الإلهي.

إن الإذن الإلهي والزهد فـي الـدنيا والمقدرة والمعرفـة و «مقـام القـرب إلـى الله» كان بمثابة الرصيد والمعطيات التي ساندت «الأولياء» في قيادة ورفد المستضـعفين المنادين بالقرب إلى الله. وبناء على ذلك، أصـبحوا يستحقون «الشـرب المستديم» و «التواصـل المسـتديم» وتلقـي نعمـة «القـرب إلـى الله» التـي لا زوال لهـا عنـد مليـك مقتدر.

إن ما يصب من البحر فى البحر يذهب إلى حيث أتى

رَجيم جنّة الحضور

و بعد هذه المقدمة الجلية والهادية، يرسم الإمـام المعصـوم(ع) فـي دعـاء الندبـة[1]، تيـار «صـبغةالله»[2] مـع ذكـر المصـاديق وكـل مـا حـدث لـه علـى يـد تيـار «لعنـةالله.» بعبارة أخرى، فان دعاء الندبـة يقدم السلسـلة النورانيـة لصـبغةالله. و منـذ بدايـة خلقـة

---

١. و كان الإمام الصادق(ع) قد علم شيعته و أنصـاره «دعـاء الندبـة»، و أمرهم بقرائتـه فـي الأعيـاد الأربعـة وهي عيدالفطر و عيدالأضحى و عيدالغدير و عيدالجمعة، و أوصي لنا أن نتحدث من خلال هذا الدعاء إلـى إمامنا وقائدنا ومقتدانا في عصر الغيبة ونجدد العهد معه. وأول شخص موثوق به و قابل للإعتماد و الإستناد روى دعاء الندبة الشريف في كتابه عن إمام الحق، الإمام جعفر الصـادق(ع) هو «ابوجعفر محمّدبن حسين بن سفيان بزفري.» وهو من أساتذة الشيخ المفيد الذي نقل عنـه روايـات فـي مواقـع كثيـرة. وقد أتـى المحـدث النوري على ذكره عندما أحصى أساتذة الشيخ المفيد، و فيما عدا ذلك فان الكثير من المحدثين نقلوا دعـاء الندبة الشريف. للمزيد من المعلومات، يرجى الرجوع إلى كتاب «مع دعاء الندبـة فـي فجـر الجمعـة» للاسـتاذ علي‌أكبر مهدي‌پور، من اصدارات «موعود.»

٢. الصبغة؛ ١. المادة التي يُلون بها شئ ما؛ ٢. الدين والملة؛ ٣. اللون، اللون المختصر. صبغةالله؛ لـون الله، دين الله.

آدم(ع) وحتى يتبلور مصير العالم، ثمة منعطفات مهمة طوال التاريخ، لكي ينتبه ويتذكر قارئ الدعاء «الخارطة الإلهية العامة.» ولذلك يقال بان دعاء الندبة يتولى مهمة تقديم ووصف هذا التيار الإلهي.

وبعد الحمد والثناء اللذين يردان في كل الأدعية والزيارات المأثورة، نقرأ:

اَللّـهُمَّ لَکَ الْحَمْدُ عَلى ما جَرى بِهِ قَضاؤکَ فى اَوْلِيائِـکَ...؛ اَلَّـذينَ اسْتَخْلَصْـتَهُمْ لِنَفْسِکَ وَدينِکَ (صبغةالله)؛ اِذِ اخْتَرْتَ لَهُمْ جَزيلَ ما عِنْدَکَ مِنَ النَّعيمِ الْمُقيمِ الَّذى لا زَوالَ لَهُ وَلاَ اضْمِحْلالَ ...

«فبعض ...

إن أول وأهم منعطف في التاريخ هو ولادة وحياة وسير الإنسان في الكون، ومن نافذة معرفة الأديان الإبراهيمة والتوحيدية، وإخراج آدم وحواء من الجنة بعد اقترابهما من الفاكهة المحظورة.

إن الكتاب والدين التوحيدي، يأخذان بيد ابن ادم ليمررانه خطوة فخطوة من منعطفات ومجازات التاريخ المهمة.

سر الفاكهة المحظورة

إن القرآن ليس كتاب التاريخ، بل هو كتاب الهداية والذكر. اذ قال تبارك وتعالى:

«ذَلِکَ الْكِتَابُ لاَ رَيْبَ فِيهِ هُدًى لِّلْمُتَّقِينَ.»[١]

إن كلام القرآن الناطق، أي كلام المعصومين، هو ككلام القرآن الصامت، فيه هدى وذكر. فالذكر ينهمر على القلب الجاهز للمؤمن، كماء المطر، فيؤدي إلى الحيوية والنشاط و النضارة والقوة ويثمر النمو والكمال.

---

١. سورة البقرة (٢)، الآية ٢.

إن اشارة الأدعية مثل «دعاء الندبة» إلى المصير والتاريخ، هو من أجل تذكير الإنسان. التذكير بالمنعطفات التي مرت على البشرية وأدت إلى الهداية أو الضلال. إن التذكير بهذا الكلام يذكر الانسان العصري بالمنعطفات والتقاليد الثابتة وعلى الأرجح الثغرات عسى أن يتجنب الانسان في المرة التالية الثغرات والهفوات وألا يسقط في نقرة الضلال. ونقل عن النبي الأكرم(ص) اذ قال:

«لاَيُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ.»

و الدعاء يشير في جملة قصيرة إلى تسكين آدم و زوجته حواء في الجنة و خروجهما من الجنة مكان سكنهما.

إن حكاية هذا الإسكان و الخروج هي حكاية الانسان في صحن وسراي أهل الإيمان والخروج من جنة الايمان بعد الغفلة وعصيان أوامر الله و نواهيه، الشئ الذي تكرر طيلة تاريخ تواجد الانسان على الأرض لالاف السنين.

إن خلقة آدم(ع) بدأت مع العهد ووقع خروجه من الجنة مع الإنفصام عن العهد. إن هذا أول تذكير لدعاء الندبة لجميع المؤمنين و تبيان ما حدث في المرحلة الأولى و المنعطف للخارطة الإلهية العامة (من أجل سير وسفر الانسان في الأرض حتى آخر منزل موعود)، و إماطة اللثام عن تقليد مهم إن لم يُدرك، فان قصة الطرد من الجنة و الحضور أمام الله تعالى، ستقع آلاف المرات الاخرى.

إن الله تعالى لم يضمن لاي كائن كان أن يبقى خالدا إلى الأبد في جنة الحضور و في جموع المؤمنين، حتى وإن كان آدم(ع) الصفي وابو البشر. وكما في التمرد و العصيان، فان آدم وحواء طردا من الجنة وهبطا إلى الأرض.

و يقول الإمام الصادق(ع) أن سبب تسمية آدم(ع) بهذا الإسم هو أنه خلق من «الأديم» و قشرة الأرض.

و يقول الشيخ الصدوق أن «الأديم» هو اسم الطبقة الرابعة من الأرض و التي خلق آدمة(ع) منها.[١]

إن خلقة الأب والأم مباشرة من قشرة الأرض، يعد تذكيرا مهما بحد ذاته لكي يعرف الانسان أنه لا يملك أي قوة وقدرة ورأسمال، ماعدا أن يد القدرة الإلهية انتشلته من تراب المذلة. وورد في رواية أن الله تعالى خلق آدم(ع) من دون أب وأم لكي يكون دليلا على قدرة الله.[٢]

وبعد أن اختير آدم(ع) و وجد في المراحل التكوينية الروح الإلهية وتعليم الأسماء. سجدت له الملائكة بامر من الله وأسكن في الجنة.

وطلب من آدم وحواء ألا يقربا الشجرة الممنوعة وألا يأكلا من ثمرها.

«وَ قُلْنَا يَا آدَمُ اسْكُنْ أَنتَ وَ زَوْجُکَ الْجَنّةَ وَ کُلاَ مِنْهَا رَغَداً حَيْثُ شِئْتُمَا وَ لاَتَقْرَبَا هَـذِهِ الشّجَرَةَ فَتَکُونَا مِنَ الْظّالِمِينَ.»[٣]

إن عصيان العاصين، إبليس ومن بعده آدم وحواء، جعلهم حسب السنة الإلهية يستحقون البعد والإبتعاد. فابليس عن الحضور الإلهي وادم وحواء عن الجنة حيث سكناهما. وقال الله لابليس:

«قَالَ اخْرُجْ مِنْهَا مَذْءُومًا مَدْحُورًا لَمَنْ تَبِعَکَ مِنْهُمْ لَأَمْلَأَنّ جَهَنّمَ مِنْکُمْ أَجْمَعِينَ.»[٤]

وكان آدم وحواء قد انتبها إلى خدعة ومكر ابليس. وكان الله قد حذرهما مما كان يهددهما، بحيث أن الله تعالى يذكر جميع أبناء آدم في الآية ٢٧ من سورة الأعراف بكل ما حل لأبويهما ويقول:

---

١. «علل الشرائع»، ص ١٤.
٢. «بحارالأنوار»، ج ١، ص ١٠٨.
٣. سورة البقرة، الآية ٣٥؛ سورة الأعراف، الآية ١٩.
٤. سورة الأعراف، الآية ١٧.

«يا بَنِى آدَمَ لايَفْتِنَنَّكُمُ الشَّيْطَانُ كَمَا أَخْرَجَ أَبَوَيْكُمْ مِنَ الْجَنَّةِ يَنزِعُ عَنْهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوْآتِهِمَا إِنَّهُ يَرَاكُمْ هُوَ وَقَبِيلُهُ مِنْ حَيْثُ لاتَرَوْنَهُمْ إِنَّا جَعَلْنَا الشَّيَاطِينَ أَوْلِيَاءَ لِلَّذِينَ لايُؤْمِنُونَ.»[1]

وهذا ظاهر القضية، ويجب التذكير ب«سر» توبيخ وطرد آدم من الجنة ومعرفة ماذا كان ذنبه الكبير؟ وبلا شك لم يكن الفاكهة المحظورة والتفاحة والقمح وما شابه ذلك. فان عرفنا حكمة الطرد، فان ما حدث، سيشكل تذكرة وعبرة للآخرين وسيعقبه ردع للتجربة الأولى لادم وحواء.

ولقد كشف النقاب عن هذا السر، المعصومون فحسب، و إلا ليس هناك بعد آدم(ع) وإلى يوم القيامة، قمح ولا تفاحة يكون بني آدم بحاجة إليهما، لكي يُذكروا بشأنها ويبقوا بمأمن عن الطرد.

وفي فجر الخلقة، عندما فتح آدم(ع) عينيه، ظن أن الله تعالى لم يخلق ضمن مخلوقاته، خلقا أكرم و أشرف منه. وأمر أن ينظر إلى ساق العرش وعندما نظر رأى أنه كتب بقلم التكوين:

«لاإله الاالله، محمّد رسول الله وعلىّبن أبىطالب أميرالمؤمنين و زوجه فاطمة سيدة نساء العالمين والحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنة.»

فقال من هؤلاء؟ فجاء الرد: إن هؤلاء من أبنائك وأفضل منك و من جميع الخلق، و إن لم يكن هؤلاء لما خلقتك و لا الجنة و النار و السماء و الأرض.»

عندها قال:

«لاتغبط مقامهم! إلا أن آدم تمنى مقامهم وتسلط الشيطان عليه و زوجه عن هذا الطريق ووسوسه ليأكلا من الشجرة الممنوعة التى كانا قد منعا من أكلها.»[1]

---

١. سورة الأعراف، الآية ٢٧.

و عندما تمنى آدم وحواء المقام السامي لأهل البيت، رأى الشيطان أن الفرصة سانحة لإغوائهما و أقسم بشأنهما باني أريد الخير لكما و قال: ألا تريدان أن أدلكما على شجرة إن أكلتما منها ستخلدان و تملكان الملك الأبدي؟

«فَوَسْوَسَ إِلَيْهِ الشَّيْطَانُ قَالَ يَا آدَمُ هَلْ أَدُلُّكَ عَلَى شَجَرَةِ الْخُلْدِ وَ مُلْكٍ لَّايَبْلَى.»[۲]

و كأن هذه الشجرة في الجنة، كانت تمثل الصورة البرزخية للشجرة الطيبة لولاية محمّد و المحمّد(ص)، بحيث أن جميع النعم الجسدية والروحانية تنبع وتنمو منها. لذلك فان الله تعالى نهى آدم وحواء عن الشجرة الممنوعة لسبب أنهما لم يكونا في منزلة أهل البيت وأن طلب مقامهم من قبلهما كان بمنزلة الخروج عن حدهما ومرتبتهما وأن الأثر الوضعي لهذا الخروج كان تسلط الشيطان والسقوط من مقامهما.

و تفسيرا للآية:

«أَمْ يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ‌إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا.»

قال الإمام علي أميرالمؤمنين(ع): نحن آل ابراهيم. لذلك فقد أصبحنا محسودين، مثلما كان آباؤنا محسودين، وأول من حسدنا، كان ادم(ع) الذي خلقه الله بيديه.[۳]

والمراد من الحسد فيما يخص آدم(ع) هو الغبطة، لا الحسد الذي يعد رذيلة أخلاقية. لذلك فان النهي عن الأكل من الشجرة الممنوعة، كان نهيا إرشاديا، وكان الله قد حذر ادم وحواء بان تمني مقام محمّد وآل‌محمّد(ص) يؤدي إلى الفضيحة و

---

۱. «تفسير التسنيم»، جوادي آملي، ج ۳، ص ۳٦۲.
۲. سورة طه (۲۰)، الآية ۱۲۰.
۳. «الإحتجاج على أهل الحجاج»، ج ۱، ص ۱٦۰.

الإبتلاء بالمشقة والخروج من الجنة وغلق العيون البرزخية. لذلك عندما هبط ادم إلى الأرض، تاب عن أمنيته وجعل النبي وأهل بيته واسطة بينه وبين الله، وأقر بذلك بتقدمهم وشرفهم وقبل الله توبته.[١]

و يكشف دعاء الندبة في أول منتقى له ضمن تبيان «الخارطة الإلهية العامة» وتقديم المنعطفات المهمة التي حلت بالبشرية، النقاب عن أحد المدلولات المهمة لطرد الانسان من جنة الحضور والقرب، وذلك من خلال تذكير المؤمنين بسر الشجرة الممنوعة ويذكرهم عسى أن ينتبهوا في هذا الخصوص لكي لا ينحرفوا عن مسار القرب والا يبتلوا بقبيلة لعنةالله بعدما كانوا في قبيلة صبغةالله. ورغم تصورنا، فان التاريخ يعيد نفسه.

إن الانسان جيلا بعد جيل، يمر بظروف تاريخية خاصة و يرتكب حسب السنن الثابتة و المقدرة للكون، عملا ارتكبه ألوف الأشخاص قبله. ومثلما أن ضربة سكين تؤدي إلى تمزق اليد و الذراع، فان ممارسة الظلم ضد الأب و الأم و العقوق، يجلب التعاسة والشقاء للأبناء.

إن الانسان وفي أي عصر وبين أي جيل يعيش، يستطيع أن يجرب أثر هذه القواعد. إن الوعي التجربي في العالم الفيزيقي يذكر الانسان ويدعوه للإنتباه؛ لانه يشاهد نتائج الاعمال بام عينه. لكن الانسان قلما يشاهد ما يحدث في ما وراء العالم الفيزيقي، لذلك فان الانسان ينتبه إلى نتائج وعواقب أعماله متأخرا.

إن الإبتلاء بالإبتعاد عن جنة الحضور، مثل إبتلاء الأولاد غير البارين بأبويهم بالعقوق، أمر حتمي الوقوع. ويكفي أن يستقر الانسان في مدار هذه الواقعة

١. «تفسير التسنيم»، ج ٣، ص ٣٦٢.

وأرضياتها لكي يجربها. ويبين الله تعالى سر عموم البلايا والآفات التي تنزل على الانسان في قضية الفاكهة الممنوعة ويذكر الانسان بهذه الذريعة.

إن المطرود من مدار الرحمة يعني الهبوط في مدار اللعنة وبالتالي تجربة الإبتعاد عن رحمة الله وأن يكون مغضوبا. إن من يبتعد عن الرحمة يبتلى في شقاء أبدي، بالدنيا والآخرة المعتمة والمظلمة والجهنمية الخالدة والدائمة. فإن لم يتب آدم(ص)، لكان سيصبح عقب ابليس، متلقيا لخطاب «عليك لعنتي» و «فانك رجيم.»

«وَ إِنّ عَلَيْکَ لَعْنَتِی إِلَی يَوْمِ الدِّينِ.»[1]

ويتوعد الله تعالى في الآيات الثماني التالية، ابليس بالعذاب الجهنمي ويدينه. إن طرد ورجم ابليس يتعلق في الحقيقة بعقوبته الدنيوية وإن العذاب الأبدي في الجحيم سيكون عقابه الأخروي.

ومن ثم يتجه دعاء الندبة على الفور صوب المنعطف الثاني من سير وسفر الإنسان في التاريخ.

---

١. سورة ص (٣٨)، الآية ٧٨.

الفصل الثالث: تجاوز الأمة الواحدة

و وصفا وتبيانا للمنعطف الثاني المهم للبشرية، يذكرّ دعاء الندبة بما جرى للنبي نوح(ع)، ومن دون أن يورد مقدمة مطولة عن ألف عام من الألم والمعاناة والجهد الذي بذله نوح(ع) لدعوة قومه إلى الطريق القويم، يتطرق الدعاء إلى آخر مقتطف من حياة النبي نوح(ع) أي استقلاله والمؤمنين معه، للسفينة التي صنعها بيده، و يقول:

«وَ بَعْضٌ حَمَلْتَهُ فی فُلْکِکَ وَ نَجَّیْتَهُ ... .»

ومنذ خلقة آدم(ع)، فان البشرية المستغنية عن الشريعة المدونة، عاشت ك«أمة واحدة» في منتهى السلامة والصحة. و تشير آيات متعددة إلى هذه الأمة الواحدة:

«وَ مَا كَانَ النّاسُ إِلّا أُمّةً وَاحِدَةً فَاخْتَلَفُوا وَ لَوْلَا كَلِمَةٌ سَبَقَتْ مِن رَّبِّکَ لَقُضِیَ بَیْنَهُمْ فِیمَا فِیهِ یَخْتَلِفُونَ.»[1]

وهذا الكلام بيّن بصورة أوضح في سورة البقرة:

«كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِیِّینَ مُبَشِّرِینَ وَمُنْذِرِینَ وَ أَنْزَلَ مَعَهُمُ الْکِتَابَ بِالْحَقِّ لِیَحْکُمَ بَیْنَ النَّاسِ فِیمَا اخْتَلَفُوا فِیهِ ... .»[2]

---

١. سورة يونس (١٠)، الآية ١٩.
٢. سورة البقرة، الآية ٢١٣.

و قبل نوح(ع)، عاش أنبياء بمن فيهم آدم(ع) و شيث(ع) و إدريس(ع) وكان يوحى إليهم على غرار سائر الأنبياء الإلهيين. و في هذه الدورات، كان الناس يعيشون كأمة واحدة. ولم يكن مستكبر ليستكبر، و لميحدث خلاف وخصومة بين المستضعفين والمستكبرين. لذلك فان هؤلاء لم يكونوا بحاجة إلى أحكام تفصيلية فيما يخص القضايا الاجتماعية والاقتصادية والسياسية.

ومع المواجهة والعداء الذي اندلع بين المستضعفين والمستكبرين، زالت الأمة الواحدة وانقسم الناس إلى فئتين، مستكبرة ومستضعفة. وبعث الله تعالى الأنبياء ليرسل معهم الكتب والحكمة للذود عن حقوق المستضعفين لفسخ العلاقات الظالمة وإقامة القسط والعدل بين الناس.

لذلك فقد نزلت أول شريعة منذ عهد نوح(ع). ويقول الله تعالى في الآية ٣٤ من سورة سبأ:

«وَ مَا أَرْسَلْنَا فِی قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ.»

و كان المستكبرون والمترفون، يعتبرون أنصار نوح(ع) بانهم أراذل و توافه و كانوا يطلبون من هذا النبي العظيم أن يطرد الأنصار المستضعفين من عنده.

«قَالَ الْمَلَأُ مِن قَوْمِهِ إِنَّا لَنَرَاکَ فِی ضَلَالٍ مُّبِينٍ.»[1]

وقد بُعث كل من الأنبياء الإلهيين لقوم ما، فجماعة من الملأ والمترفين و المستكبرين تفاخرت بالمال والأبناء وكانت تسعى للقضاء على المستضعفين، لكن الأنبياء وحسب مهمتهم وقفوا بصلابة وقوة بوجه هؤلاء.

و منذ هذا العصر ومع اضمحلال «الأمة الواحدة» تكرس تاريخ، انتشرت فيه مجموعتان، مستضعفة ومستكبرة وبطريقتي تفكير ورؤية في جغرافيا الأرض.

---

١. سورة الأعراف (٧)، الآية ٦٠.

و فسرت المصادر المختلفة، الملأ بالوجهاء. جماعة تفرض حكمها وسيطرتها على المجتمع مستندة بذلك إلى القوة والسطوة، وتقمع معارضيها وتفرض موقعها من خلال ممارسة النفوذ على الحكومات.

وهذه الوجوه البارزة، التي تستند إلى السلطة والمكانة، تسترعي انتباه الآخرين والمستضعفين تجاهها وتسعى لجعل الجماهير تتماشى معها ومع رؤيتها.

إن المترف هو الرفيق والصديق الحميم للملأ، أصحاب النعمة والمكنة الهائلة، والمنغمسون دائما في الملذات والشهوات. إن هذه الجماعة غارقة في الرفاهية واللذة وفي غفلة عن تأدية الواجبات والمهمات الإلهية والسماوية، وتحجم عن تأدية الواجبات من أجل اكتساب المزيد من الرخاء والنعيم.

إن قصة سير التاريخ بعد حقبة قصيرة من الأمة الواحدة، هي قصة المواجهة بين المستضعفين والمستكبرين والمنعطفات التي يمر بها الملأ والمترفون بين الأقوام لحذف الأنبياء العظام و المستضعفين، والفساد والإفساد على الأرض. و يقول القرآن الكريم حول نبوة النبي نوح(ع) ومصير قومه:

«وَ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَى قَوْمِهِ فَلَبِثَ فِيهِمْ أَلْفَ سَنَةٍ إِلَّا خَمْسِينَ عَامًا فَأَخَذَهُمُ الطُّوفَانُ وَ هُمْ ظَالِمُونَ.»[1]

و مع زوال سطوة المستكبرين على اثر الطوفان الضخم، كان الأقوام في راحة لردح من الزمن، لكنهم قاموا مرة أخرى وشكلوا الصفوف من جديد للوقوف بوجه المؤمنين، إلى أن أرسل الله الكريم، ومن منطلق اللطف والرحمة، الرسول المحطم للأصنام.

---

١. سورة النساء (٤)، الآية ٣٥.

الفصل الرابع: التاريخ المنسى

إن التذكير ب«التاريخ المُغْفَل والمنسي» في هذا المقتطف من «دعاء الندبة» هو تذكير بالشجرة المباركة لإبراهيم وآل إبراهيم(ع) أي محمّد و المحمّد(ص). إن بداية ولادة و تأسيس الاسلام في «الحجاز» وصحن «المسجد الحرام» وظهور إمامة سلسلة الصالحين، نبعت من هذه الشجرة التي تنتشر على امتداد التاريخ و كل الأزمنة والأمكنة.

«وَ بَعْضٌ اتّخَذْتَهُ لِنَفْسِکَ خَلِيلاً.»

و قد ظهر النبي إبراهيم(ع) خليل الرحمن في منطعف آخر من تاريخ سيره و سفره في الأرض في قبيلة المستضعفين، ليحرر المستضعفين بعد تحطيم بأس الملائين و المترفين والغطرسة و التكبر وعبادة الطواغيت للأوثان. وهذه المرة، إلتأم المستكبرون وأضرموا نارا كبيرة في مسعى لشطب المستضعفين. وكان خليل الله العنوان والامتياز الخاص لهذا النبي المكرم. وقال الله تعالى في وصفه:

«وَ مَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لله وَهُوَ مُحْسِنٌ واتّبَعَ مِلّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَ اتّخَذَ الله إِبْرَاهِيمَ خَلِيلاً.»[1]

---

١. سورة النساء (٤)، الآية ١٢٥.

و يقول الإمام عليّبن موسىالرضا(ع) في رواية حول عنوان الخليل الذي اختير لهذا النبي الكريم:

«إنما اتخذالله إبراهيم خليلاً؛ لأنه لميرد أحداً ولميسأل أحداً قط غيرالله تعالى.»[١]

إن عهد إبراهيم(ع) يعد منعطفا مهما في سير وسفر الانسان في الأرض و حضور المستضعفين. وفي هذا العهد، هناك المجاهدات الكبرى لهذا النبي المكرم ضد المستكبرين و الملائين و المترفين، فضلا عن تفرع فرعين مهمين من شجرة وجوده؛ بنيإسرائيل و بنيإسماعيل. وقد جهز المستكبرون أنفسهم في حلة جديدة و أصبحوا منظمين و مجربين و مسلحين تماما ليقفوا بوجه بنيإسماعيل أي المستضعفين لحذفهم و بالتالي فرض هيمنتهم و سيادتهم في إطار نظام سياسي و اقتصادي و اجتماعي.

بداية إمامة الصالحين

و بعد تذكيره بعهد نوح(ع) ومصير القوم العاصين والجاحدين، يذكرّ الإمام الصادق(ع) في «دعاء الندبة» بالمنعطف الثالث في تاريخ طائفة وقبيلة صبغةالله، أي عهد إبراهيم، خليل الرحمن(ع). ومن وجهة نظر أهل المعرفة والرؤية العرفانية، فان الكون وجملة مخلوقات الله، هي مكان ظهور أسماء وصفات حضرة الحق تعالى. و في عالم الكون وبمراتب تفكيكية، يأخذ كل مظهر، تقدمه و تأخره من تقدّم و تأخّر الإسم الذي هو مظهره. لذلك فان أيا من المراتب، لاتتمتع بوحدها بجميع صفات الحق تعالى، بل أن كل مرتبة من مراتب الكون المتعددة، مؤشر وآية إلهية أو اسم من أسماء حضرة الحق تعالى.

---

١. وسائل الشيعة، ج ٩، ص ٤٤٢.

إن الإسم الجامع والشامل لجميع الأسماء والصفات، هو إسم الله الشريف جلّ‌وعلا. إن هذا الإسم الأعظم شأنه شأن سائر الأسماء، بحاجة إلى مظهر و هذا المظهر يجب أن يحيط بجميع المظاهر من حيث وسعة الوجود. إن الحقيقة المحمّدية(ص) المقدسة هي مظهر جامع لاسم الله؛ و كما أن اسم الله الشريف مقدم على جميع الأسماء في الحقيقة و المرتبة و يتجلى على جميع الأسماء، فان مظهر هذا الإسم الجامع و هو الانسان المحمّدي المتكامل، مقدم على جميع المظاهر الإلهية الأخرى و يمكن أن يكون مرآة الحق.

إن أيا من الأنبياء لا يتمتع بهذا المنصب، لانهم و إن كانوا مظهرا لتجليات الأسماء و الصفات، لكن مقام النبي الخاتم، هو مقام الولاية المطلقة التي تحيط بجميع الأشياء.

إن الإنسان المحمّدي(ص) المتكامل، هو مرآة تعكس جميع الأسماء الحسنى و الصفات السامية و من بين الكتب السماوية ما قبل القرآن، فان كتابين يحظيان بتفوق أكثر، و هما «التوراة» و «الإنجيل». بديهي أن هذين الكتابين السماويين، لا يماثلان أحدهما الآخر و يملكان تباينات و أوجه اختلاف مع بعضهما البعض، لانه بغير ذلك كان واحدا منهما يكفي الآخر. و حسب مقامات النبي موسى(ع)، فان التوراة كان مظهرا ظاهر واهتم بالعوالم الظاهرية و الجسمانية أكثر، و في المقابل و بمقتضى مقام النبي عيسى(ع)، فان «الإنجيل» هو مظهر الباطن و يهتم أكثر بالعوالم الباطنية والروحانية، لكن وتناسبا مع شمولية و جامعية مقام الرسول الخاتم(ص) فان «القرآن» هو جامع الكمالات الظاهرة والباطنة، ويهتم بكلا العالمين الظاهر والباطن كما يجب، ويتولى شؤون الدنيا والآخرة معا.[1]

---

١. المقدمات من كتاب نص النصوص»، سيّدحيدر أملي، صص ٧٢ و ٧٤.

و بناء على ذلك، فان القرآن هو أكمل الكتب وشرائعها وأشرف الشرائع ويضم جميع الكلمات الوجودية، ولذلك عبر عنه ب«جوامع الكلم»[١]. لسبب أن القرآن يحظى بجميع المراتب الكمالية، وبعبارة أخرى، فان خلاصة الكتب الإلهية للأنبياء، نزلت على قلب خاتم الأنبياء(ص).[٢]

و لايخفى على أحد بان الله تعالى، اختار وبعث مائة وأربعة وعشرين ألف نبي لهداية عباده، لكن من بين كل هؤلاء، أشير إلى وقت وعهد أنبياء خاصين، بوصفهم منعطفا هاما في تاريخ البشرية، وأن الأدعية والزيارات تؤكد خلال تعليم أنصار دين الخاتم و عرض المعرفة الثقافية، بوجه خاص على هذا المنعطف و تتحدث بشأنه.

و ربما يمكن القول، بان كلا من هذه المنعطفات تؤشر على مرحلة خاصة من السير الإكمالي للدين ونمو السعة الوجودية للبشيرية لتلقي الرسالة السماوية. المراحل التي تمضي قدما حتى تجربة الدين العالمي و الكتاب المتكامل والنبي العالمي و قافلة و طائفة «صبغةالله» النورانية. لذلك فان كل نبي يرث الأنبياء السابقين وينقل كل المواريث إلى الأنبياء والأولياء ما بعده، في حين أن كلا منهم كان مكان ومظهر أحد الأسماء الخاصة لله تعالى.

فاليهود، و زعما ببقاء دين موسى(ع) في فرع بنياسرائيل، وفي تحريف سافر، قدموا إسحاق(ع) على أنه ذبيحالله وأصروا على ذلك، في حين أن غصن الإمامة والخلاقة الدائمة انبثق من شجرة ابراهيم وآل ابراهيم(ع) الطيبة، ومن نسل اسماعيل(ع) (ذبيح الله) ومن ثم أثمر.

---

١. «أسرار الشيعة»، تصحيح محمّد خواجوي، ص ٣٢.
٢. سورة المائدة (٥)، الآية ٤٨.

إن بني‌اسرائيل ورغم علمهم بقصر غصن الأنبياء من بني‌اسرائيل، وانتهائه بعهد نبوة ورسالة النبي عيسى(ع)، أبدوا من منطلق الحسد، حقدا تجاه إسماعيل وآل‌محمّد(ص) من نسل اسماعيل. ويقول الله تعالى في القرآن الكريم:

«أَمْ يَحْسُدُونَ النّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَآ آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَ الْحِكْمَةَ وَ آتَيْنَاهُم مُّلْكًا عَظِيمًا.»[1]

إن هذا الحسد كان تكرارا لغبطة النبي آدم(ع)، لمقام محمّد و المحمّد(ص)، اذ اقترب ادم من الشجرة الممنوعة تحت إيحاءات ووساوس ابليس، رغم نهي الله له بعدم الإقتراب منها، وأصبح بالتالي جاهزا ومستحقا للإبتعاد عن جنة الحضور و الهبوط إلى عرش الأرض. وفي منعطف آخر، إنخدع بنواسرائيل وحسدوا بني‌اسماعيل (محمّد وآل‌محمّد(ص)). إن هذا الفعل جعلهم بلاشك جاهزين و يستحقون الإبتعاد عن المقام والمنزلة التي منحها الله إياهم.

و هذه الوساوس الشيطانية أثرت على قابيل، عندما اطلع على مقام وصاية و خلافة هابيل بعد ادم(ع)، وهم بقتله.

وإستنادا إلى الآيات والروايات الكثيرة، فان إمامة ونبوة محمّد وآل‌محمّد(ص)، أرسيت وبنيت على الهيكلية الصلبة لإبراهيم خليل الرحمن(ع).

ويشير القرآن الكريم في سبعة مواضع إلى الشجرة المباركة. ويقول الله تعالى في الآية ٣٥ من سورة النور:

«اللَّهُ نُورُ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ مَثَلُ نُورِهِ كَمِشْكَاةٍ فِيهَا مِصْبَاحٌ الْمِصْبَاحُ فِي زُجَاجَةٍ الزُّجَاجَةُ كَأَنَّهَا كَوْكَبٌ دُرِّيٌّ يُوقَدُ مِنْ شَجَرَةٍ مُبَارَكَةٍ زَيْتُونَةٍ لَاشَرْقِيَّةٍ وَ لَاغَرْبِيَّةٍ

---

١. سورة النساء (٤)، الآية ٥٤.

يَكَادُ زَيْتُهَا يُضِيءُ وَلَوْ لَمْ تَمْسَسْهُ نَارٌ نُورٌ عَلَى نُورٍ يَهْدِي اللَّهُ لِنُورِهِ مَنْ يَشَاءُ وَ يَضْرِبُ اللَّهُ الْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ وَ اللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ.»

و فسرت الشجرة المباركة لا شرقية ولا غربية، في الكثير من الروايات، بشجرة آل‌إبراهيم(ع) المباركة. و نقل جابر عن الإمام محمّدالباقر(ع) عن رسول الله(ص) ما مضمونه أن ابراهيم(ع) هو أصل وجذور الشجرة المباركة.[١]

ونقل ابن مردوية عن أبي هريرة عن رسول الله(ص) أن المراد من الشجرة الطيبة، هو قلب ابراهيم(ع).[٢]

وجاء في كتب الأدعية حول هذه الشجرة المباركة: أنه عندما يزور إمام العصر و الزّمان(عج)، الإمام علي(ع)، يقول:

«السّلام على الشجرة النبوية و الدوحة الهاشمية.»

و يقول الإمام السجاد(ع) في الأعمال المشتركة لشهر شعبان، أقراوا كل يوم هكذا:

«اللّهم صلّ على محمّد و المحمّد شجرة النبوّة و موضع الرسالة.»

و جاء في «دعاء الندبة»:

«وقال رسول الله(ص): «أنا وعليّ مِن شَجرة واحِدة وسائر الناس مِن شَجَر شَتى.»

و على أي حال فان الروايات المتعلقة بشجرة إبراهيم، جاءت في تفسير «نور الثقلين» في ذيل الآية. لذلك و نظرا إلى الروايات و الأدعية و الزيارات المذكورة آنفا، فان جذور دين المسلمين، تعود إلى إبراهيم و أن محمّدا وآل‌محمّد(ص) هم إدامة هذه الشجرة.[٣]

---

١. «تفسير البرهان»، ذيل الآية ٣٥ من سورة النور.
٢. «الدر المنثور»، ج ٥، ص ٤٩، نقلا عن «التاريخ المنسي للاسلام»، السيد حسن موسوي زنجاني، ١٣٨٥.
٣. «التاريخ المنسي»، ص ١٣.

ونقل صالحبن سهل الهمداني عن الإمام الصادق(ع)، قال أن الله يقصد بالشجرة المباركة، شجرة إبراهيم خليل الله.[١]

ويصل نسب اليهود من حيث الأجداد إلى النبي إسحاق(ع) الإبن الأصغر للنبي إبراهيم(ع)، وبما أن عددا كبيرا من أولاد إسحاق (٤٨ شخصا) كانوا أنبياء، فان اليهود كانوا يؤمنون بان النبوة والإمامة لمتستمر في الإبن الآخر للنبي ابراهيم(ع) أي إسماعيل(ع)، وأن اليهود وحدهم الذين يرثون نبوة إبراهيم(ع)، لكنه وحسب الوعد الإلهي، فان وعد «الملك العظيم» كان قد أعطي لأبناء اسماعيل(ع) و المحمّد(ص)، بحيث أن النبي إبراهيم(ع) كان قد أرسى دعائم الدين العالمي للشجرة المباركة لآل إبراهيم(ع) و محمّد وآلمحمّد(ص)، من خلال نقل اسماعيل إلى أرض الحجاز و تنفيذ مراسم القربان في «صحراء منى» و بناء «بيتالله» في المسجدالحرام. و حسبما ينقل ربان بن صلت عن الإمام الرضا(ع) فان السبب الرئيسي لمناصبة اليهود العداء للإسلام هو الحسد.[٢]

وقد بذل اليهود قصارى جهدهم لتحديد زمان ومكان ولادة وظهور الرسول الموعود ونبي آخر الزمان، وبما أنهم كانوا ملمين بالعلوم الغريبة (التنجيم والجفر و...)، كانوا يظنون أن بوسعهم العثور عليه و قتله. وقال عليبن ابراهيم الحيبن أخطب اليهودي:

إن النبى الذى كنا ننتظره، كنا نظن أنه من بنىاسرائيل، لكنه اتضح الآن بانه من بنىإسماعيل. لن نستسلم له أبدا، لان بنىاسرائيل يتفوقون على العالم باسره حتى على بنىاسماعيل.

---

١. المصدر السابق، ص ١.
٢. المصدر السابق، ص ٥٢، نقلا عن «البرهان»، ج ١، ص ٣٧٦.

و ينقل تفسير «نور الثقلين»، ج ١، صص ٤٩١ إلى ٤٩٣، ست روايات تنص على أن مشكلة أعداء أهل البيت، تمثلت في الحسد والبخل ومن أنه لماذا يجب أن يرث المحمّد علوم الأنبياء، لكن بنياسرائيل و بنيأمية وبني العباس لايرثون ذلك.

و في الجزء الأول من «نور الثقلين» ص ٩٢ نقل عن الإمام الباقر(ع)، أن اليهود السذج والبسطاء كانوا يقرأون في توراتهم، أوصاف الرسول الخاتم(ص)، لكن الجماعة اليهودية الحسودة والمعاندة والمستكبرة، كانت تمنعهم من ذلك.»

وينقل في الصفحة نفسها عن «الإحتجاج» بان الإمام الحسن العسكري(ع) قال ما مضمونه أن المجموعة من اليهود التي كانت تمارس العناد، كانت تكتب أوصافا لرسول آخر الزمان وكانت توحي لعوامها بان رسول آخر الزمان، يحمل هكذا أوصاف، وهذه الأوصاف كانت على العكس من الأوصاف التي وردت في «التوراة» و كانوا يضيفون بان الرسول الخاتم والمنتظر الموعود سيبعث بعد ٥٠٠ عام آخر! إن اليهود الحسودين و المعاندين أرادوا من ذلك الحفاظ على زعامتهم على عوامهم، ومع حفظ هذه الرئاسة على عوام اليهود، الإمتناع عن الإنفاق الذي أمر به رسول الله(ص).»[١]

ويؤكد عامة العلماء والمصادر الروائية لأهل السنة على موضوع حسد اليهود تجاه النبي الأكرم(ص) وأهل بيته المكرمين.

وكما أسلفنا، فان خليل الرحمن(ع)، أرسى في حياته وبامر من الله، أسس صرح الإسلام وقيام غصن بنياسماعيل من هيكل الشجرة المباركة، وعمل من خلال ترك بصمات بارزة بما فيها تجديد بناء «الكعبة» وتنفيذ مراسم القربان، على تذكير الجميع بالخارطة الإلهية العامة و بعثة نبي آخر الزمان(ص) وأهل بيته.

---

١. المصدر السابق، ص ٥٩.

إن دفن النبي إسماعيل(ع) في صحن «المسجد الحرام» وفي «حجر اسماعيل» مؤشر آخر على هذا الإدعاء. لذلك يمكن إعتبار أن النبي إبراهيم خليل الرحمن(ع) هو مؤسس الإسلام، ويمكن إعتبار عهد ابراهيم(ع) بداية تاريخ ولادة الاسلام. وجاء في مصادر أهل السنة:

و نقل العرباص بن سارية عن رسول الله(ص) ما مضمونه أنه عندما كان آدم(ع) طينا، كنت أسمى في أم الكتاب، خاتم النبيين، وأقولها بصراحة متى بدأ تاريخي، إني أخبركم بان أول لحظة من تاريخي كانت اللحظة التي طلبني فيها ابراهيم الخليل من الله.[١]

وفي المصادر الشيعية، ينقل علي بن ابراهيم أن رسول الله(ص) قال إنه نتيجة دعوة ابراهيم.[٢]

وقال رسول الله(ص) لكل نبي إمام من الأنبياء السابقين وإمامي أبي إبراهيم.[٣]

ويأتي كلام رسول الله(ص) نتيجة دعوة وطلب إبراهيم(ع):

«رَبَّنَا وَابْعَثْ فِيهِمْ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِكَ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُزَكِّيهِمْ إِنَّكَ أَنتَ العَزِيزُ الحَكِيمُ.»[٤]

وثمة آيات كثيرة تؤكد ذلك. ويبين القرآن الكريم، الكثير من أوصاف النبي ابراهيم(ع)، بما في ذلك أنه كان على صراط مستقيم وعبدا مطيعا ورائد التوحيد.

«ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفاً وَمَا كَانَ مِنَ المُشْرِكِينَ.»[٥]

ويقدم الله تعالى، هذا النبي العظيم على أنه أسوة حسنة وقدوة للآخرين ويقول:

---

١. «التاريخ المنسي للإسلام»، نقلا عن «الدر المنثور»، ج١، ص ١٣٩.
٢. المصدر السابق، نقلا عن «نور الثقلين»، ج ١، ص ١٣٠.
٣. المصدر السابق، نقلا عن «مسند أحمد»، ج١، ص ٤٢٩.
٤. سورة البقرة (٢)، الآية ١٢٩.
٥. سورة النحل (١٦)، الآية ١٢٣.

«وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ وَاتَّبَعَ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا وَاتَّخَذَ اللّهُ إِبْرَاهِيمَ خَلِيلًا.»[١]

إن اليهود وعلى الرغم من إنتسابهم إلى إبراهيم خليل الرحمن عن طريق النبي إسحاق(ع)، لم يكونوا أنصارا وأتباعا صادقين للنبي ابراهيم(ع)، بل تمردوا وعصوا رسالته ودينه، ومارسوا الظلم وانتهكوا حدود الله، وخرجوا من دين أجدادهم.

وجاء في الآية ٦٨ من سورة «آل عمران»:

«إِنَّ أَوْلَى النَّاسِ بِإِبْرَاهِيمَ لَلَّذِينَ اتَّبَعُوهُ وَهَـذَا النَّبِيُّ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَاللّهُ وَلِيُّ الْمُؤْمِنِينَ.»

لذلك فان النبي الأكرم(ص) والمسلمين وأتباع المحمّد(ص) يعدون من أخلص أفراد وأنصار ابراهيم(ع) من خلال إعتماد أهداف ابراهيم خليل الرحمن.[٢]

ويقول الإمام علي(ع) ما مضمونه إن أجدر الناس بالأنبياء هم الذين أعلم باوامرهم. ومن ثم تلا الآية ٦٨ من سورة آل عمران.[٣]

إن النبي ابراهيم(ع) ودينه الحنيف، هو افتتاح الاسلام والدين العالمي والمتكامل لنبي آخر الزمان، والذي يؤدي إلى تأسيس الحكم التوحيدي العالمي على يد آخر وصيه، ويزول بذلك وإلى الأبد ظلم وجور اليهود الشموليين.

ويقول أحد كبار اليهود في العصر الحاضر وهو واحد من الحاخامات الصهاينة الشهيرين:

---

١. سورة النساء (٤)، الآية ١٢٥.
٢. مكارم شيرازي، «التفسير النموذجي»، قم، دار الكتب الإسلامية، الطبعة العاشرة، ١٣٧٠، ج ٢، ص ٤٦٢.
٣. الطبرسي، «مجمع البيان»، طهران، اصدارات ناصر خسرو، الطبعة الاولى، ١٣٦٥، ج ٢، ص ٧٧٠؛ نهج البلاغة، الحكم ٩٢، ص ٤٨٤.

«إن الحديث عن ماضى وتاريخ فلسطين، لايشكل السبيل الوحيد لتبرير الزمن الحاضر والعمل الحالى فى هذه المنطقة، بل هو الحديث عن نهاية التاريخ و نهاية العالم.»

إن الحديث عن بنيإسرائيل وتحريف المصادر والأحداث التاريخية، معطوف على تاريخ الغد وتأسيس الحكم الكوني والدين العالمي. لذلك فان هؤلاء يركزون جل همتهم على قمع المستضعفين والهيمنة على العالم وتقتيل المسلمين المحقين من أحفاد إبراهيم(ع).

وبهذه المقدمة الطويلة، تتضح إلى حد ما، أهمية التذكرّ والدعاء حول هذا المنعطف التاريخي المهم أي بعثة إبراهيم خليل الرحمن.

«وَ بَعْضٌ كَلَّمْتَهُ مِنْ شَجَرَةٍ تَكْليماً وَ جَعَلْتَ لَهُ مِنْ اَخيهِ رِدْءاً وَ وَزيراً؛

لقد كان النبي موسى(ع) عمودا متينا على طريق ومسار «صبغةالله»، لكي لا يزول نهج المستضعفين في وقت غلبة وهجوم جماعة «لعنةالله.»

إن تبيان قصة وحكاية القوم والشعوب وما حل بالأنبياء الإلهيين، ينطوي في حد ذاته على ذكر شريف عسى أن يتذكر الناس وينبذوا عنهم الإستكبار ويلتحقوا بقبيلة المؤمنين ويتخلصوا من الضلال.

إن تبيان هذه الأحداث يتضمن في حد ذاته، الخارطة الإلهية العامة وخط مسار أهل الحق و صبغةالله، بل يوفر إمكانية إظهار السنن الإلهية واتعاظ الناس. إن السنن الإلهية هي قواعد ثابتة تتاح لها في أي لحظة وأي مكان، إمكانية الظهور، و تتصرف بشكل أدق من القوانين الفيزيائية السارية في العناصر المادية المحيطة بنا.

و إذا ما أمتنع قوم عن قبول أحكام الله واتباع أوليائه، فانهم سيدفون كفرعون الملعون في لج البحر برغم كل ما يملكونه من مال وجبروت ومكنة و جيوش

وسينالون في هذا العالم والعالم الآخر عقاب و جزاء ما اقترفوا من نكث عهد وظلم مارسوه ضد المستضعفين.

لقد حدد المؤمنون جميع القوانين المادية والفيزيائية التي تحكم الظواهر المادية و يكرمونها و ذلك على اثر الغفلة والحجب التي تغطي قلوب و عيون البشرية، لكنه و رغم كل الوضوح لاتدرك البشرية الزوال الذي يعترض قلوب المستكبرين و نبذ حقيقة الكون في السير الإكمالي للعالم و الذي جعله يمتلئ بالظلام والظلم و الضلال.

إن أكبر ذنب لبني‌اسرائيل، هو نكثهم العهد والإصرار على الذنب و التمرد على أوامر ونواهي النبي موسى كليم الله(ع)، و قتل الأنبياء الإلهيين و حب الدنيا. إن هذه الصفات الرذيلة قللت حسب السنة الإلهية من شأن و مقام بني‌اسرائيل لتحقيق أحد أكبر البرنامج الإلهية.

ومن أبناء وفرع إسحاق النبي(ع)، نال ٤٧ شخصا مقام النبوة، لكنهم استشهدوا على يد بني‌اسرائيل واحدا تلو الآخر.

«لَقَدْأَخَذْنَا مِيثَاقَ بنى‌اسرائيل وَ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلًا كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَ فَرِيقًا يَقْتُلُونَ.»[1]

إلى أن وصل الأمر إلى موسى كليم الله(ع).

«وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَقَفَّيْنَا مِنْ بَعْدِهِ بِالرُّسُلِ وَآتَيْنَا عِيسَى‌ابْنَ مَرْيَمَ الْبَيِّنَاتِ وَ أَيَّدْنَاهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ أَفَكُلَّمَا جَاءَكُمْ رَسُولٌ بِمَا لَاتَهْوَى أَنْفُسُكُمُ اسْتَكْبَرْتُمْ فَفَرِيقًا كَذَّبْتُمْ وَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ.»[2]

---

١. سورة المائدة (٥)، الآية ٧٠.
٢. سورة البقرة (٢)، الآية ٨٧.

وبعد يوسف(ع) وتجربة العزة والسمو الشامخين، أصيبوا بظلم فرعون، ويذكرّ القرآن الكريم بهذه الواقعة ويقول:

«وَإِذْ نَجَّيْنَاكُم مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَسُومُونَكُمْ سُوءَ الْعَذَابِ يُذَبِّحُونَ أَبْنَاءكُمْ وَيَسْتَحْيُونَ نِسَاءكُمْ وَفِي ذَلِكُم بَلاءٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَظِيمٌ.»[١]

وعلى الرغم من جميع النعم وبعثة النبي موسى(ع) وإنزال «التوراة»، فانهم اتبعوا طريق التمرد والطيش مرة أخرى رغم مشاهدتهم المئات من الآيات الإلهية وتجربة العزة والكرامة، تحت ظلال النخل السامق لحضرة كليم الله.

«وَ لَقَدْ بَوَّأْنَا بنى اسرائيل مُبَوَّأَ صِدْقٍ وَ رَزَقْنَاهُمْ مِنَ الطَّيِّبَاتِ فَمَا اخْتَلَفُوا حَتَّى جَاءَهُمُ الْعِلْمُ إِنَّ رَبَّکَ يَقْضِي بَيْنَهُمْ يَوْمَ الْقِيَامَةِ فِيمَا كَانُوا فِيهِ يَخْتَلِفُونَ.»[٢]

١. سورة البقرة (٢)، الآية ٤٩.
٢. سورة يونس (١٠)، الآية ٩٣.

الفصل الخامس: قاعدة الإستبدال

إستنادا إلى جميع الآيات والروايات فان خلقة الكون ليست بلا هدف، وإن جميع الظواهر الجزئية والكلية تسير وتتحرك على مسار ذلك الهدف الكلي: «إنا لله وإنا إليه راجعون» وبما أن الإنسان زهرة وتاج الكون وبامتلاكه كافة الإمكانات المادية والمعنوية، يضطلع بدور رئيسي في تحقيق هذا الهدف الكلي في التاريخ، وهو في ذيل إشارة وحضور الأنبياء الإلهيين العظام، يتولى مهمة تنفيذ الأوامر الإلهية ويمهد لتحقيق الأهداف الإلهية العامة. لكن العاملين والسببين المهمين الداخلي والخارجي، أحدهما الشيطان وجنوده من الخارج والنفس الأمارة من الداخل، يمنعان في عملية قرصنة، الإنسان المختار وصاحب العقل من التبعية التامة والطاعة الكاملة، ويؤديان إلى الإفساد في الأرض وإبطاء تحقق تلك الأهداف الإلهية المقدسة.

إن سُنة الإستبدال هي سُنة وقاعدة استبدال القوم الذين تأخروا لأي سبب كان بما في ذلك الغفلة والإستبداد عن التماشي والحركة على مسار السنن الإلهية والأوامر الوحيانية، وخرجوا من الساحة. لذلك فان الإستبدال بمثابة تغيير السلوك أو تغيير المهمة التي أعلنت سابقا بناء على مصالح ما، لكن ومع ظهور التغيير في مواقف القوم وسلوكياتهم، فان سلوك الله قد تغير أيضا، وأنيط تنفيذ المهمة من قوم إلى قوم

آخرين. إن أسس التعامل مع الناس والقوم تعود إلى وفائهم وصمودهم وإلتزامهم بالمبادئ والقيم الوحيانية. ونقرأ في سورة التوبة، الآية ٣٩:

«يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُواْ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ انفِرُواْ فِى سَبِيلِاللّهِ اثّاقَلْتُمْ إِلَى الأَرْضِ ... إِلاّ تَنفِرُواْ يُعَذّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَ يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَ لاَتَضُرُّوهُ شَيْئًا وَ اللّهُ عَلَى كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ.»

ويوبخ الله تعالى في هذه الآية، المؤمنين بسبب إعراضهم عن الجهاد ويتوعدهم إن تخلوا عن مؤازرة النبي(ص)، فانهم لايضروه بشئ، بل يستبدلهم بقوم آخرين لن يعرضوا عن مؤازرة ودعم نبي الله والجهاد. و قد بين الله تعالى في آيات متعددة، سريان سنة الإستبدال وإحلال قوم محل آخرين و نقل مهمة قوم إلى قوم آخرين.

وتبين آية قانون الإستبدال، وجهين تربويين هما:

- الوجه السلبي، أي معاقبة ومحاسبة المجتمع الذي يفقد إستحقاقه و جدراته و يتحول إلى مجتمع آخر؛
- الوجه الإيجابي، أي تكريم المجتمع الذي يحل محل مجتمع آخر.

ويقول القرآن الكريم:

«يَا أَيُّهَا الّذِينَ آمَنُوا مَنْ يَرْتَدّ مِنْكُمْ عَنْ دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِى اللّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ.»[1]

إن الإستبدال هو من السنن الإلهية الثابتة التي لا تغيير فيها والتي تحققت على امتداد التاريخ و في مساحات ومواقع مختلفة، و ستتحقق بعد الآن أيضا بشأن سائر الأمم و الشعوب.

---

١. سورة المائدة (٥)، الآية ٥٤.

و يلفت القرآن انتباه المؤمنين إلى هذه السنة الثابتة ليعرفوا بان التكريم و المحاسبة قابلان للتغيير نسبة إلى أداء وعمل الأمم، و أن أي أمة لا تمنح مرتبة و مركزا إلى الأبد، مثلما أن بني‌اسرائيل افترضوا أن مجمل التكريم الإلهي ثابت ودائم بشأنهم رغم عدوانهم ونقضهم للحدود الإلهية واستكبارهم وتلوثهم و تدنسهم.

إن سنة الإستبدال هي سنة معقولة و مشروعة و مقبولة من لدن فطرة الانسان وهي تسري وتجري في الحياة و في كل عصر و زمان، و أي أمير و زعيم عندما يرى في وقت المجاهدة والقتال جنديا وحتى قائدا يتكاسل ويتباطأ في القتال، ويراه بانه غير جدير لإنجاز المهمة، فانه سينحيه بعد تنبيهه وحتى محاسبته، ويعين قائدا آخر محله، وقد يوبخ القائد السابق أو يدينه بالخيانة ويحكم عليه بالسجن أو النفي أو الموت.

إن حكمة الخلقة والخارطة الإلهية العامة، جيدة ونبيلة للغاية وإن خلق مجمل السماء والأرضين وبعث الأنبياء وإنزال الكتب جاء بسبب ذلك. لذلك لايمكن القبول بان تترك وتزول كل هذه المقدمات الضخمة، على اثر تكاسيل وتماهل وخيانة وتلوث قوم ما. إن إبليس وجنوده اللعينين، يركزون جل سعيهم لوضع العراقيل على طريق تحقق هذه الخارطة الإلهية. إن خداع أبناء آدم وإلهائهم بالدنيا وبسط الفساد في الأرض وبين البشر و... تأتي كلها في سبيل عرقلة تطبيق هذه الخارطة.

إن كل الشعوب والأمم والأديان التوحيدية وتراتيبية بعثة الأنبياء الإلهيين العظام، تعد بمثابة سلم عال يعمل من خلاله الأنبياء خطوة خطوة لإيصال الانسان إلى مرتبة و درجة إكمال الدين وتحقق الملك الإلهي العظيم في عصر الظهور الأكبر لولي العصر والزمان(عج). اليوم الذي تزول فيه قدم ابليس وجنود ابليس ومجمل رذائل ابليس عن ساحة حياة جسم الانسان وروحه وجغرافيا الأرض. إن شاء الله.

إن ما جرى لبني اسرائيل، يميط اللثام على الأرجح عن ثلاثة شروط لوقوع سُنة التبديل والتغيير والإحلال.

أ) طرد الخليفة الحق للرسول

وقال الله سبحانه وتعالى:

«وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِى مِنْ بَعْدِى أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَ أَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِى وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِى فَلَا تُشْمِتْ بِىَ الْأَعْدَاءَ وَ لَاتَجْعَلْنِى مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.»[1]

وفي آية أخرى يقول الله تعالى على لسان موسى(ع):

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ لِمَ تُؤْذُونَنِى وَقَد تَّعْلَمُونَ أَنِّى رَسُولُ اللَّهِ إِلَيْكُمْ فَلَمَّا زَاغُوا أَزَاغَ اللَّهُ قُلُوبَهُمْ وَاللَّهُ لا يَهْدِى الْقَوْمَ الْفَاسِقِينَ.»[2]

ب) القصور فى الجهاد

يقول الله تبارك و تعالى:

«وَإِذْ قَالَ مُوسَى لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ اذْكُرُواْ نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنبِيَاء وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَآتَاكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّن الْعَالَمِينَ * يَا قَوْمِ ادْخُلُوا الأَرْضَ المُقَدَّسَةَ الَّتِى كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَلاَ تَرْتَدُّوا عَلَى أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُوا خَاسِرِينَ»[3]

---

۱. سورة الأعراف (۷)، الآية ۱۵۰.
۲. سورة الصف (۶۱)، الآية ۵.
۳. سورة المائدة (۵)، الآيتان ۲۰ و ۲۱

ج) الإبتعاد عن القيم الإلهية

يقول الله عزوجل:

«وَاتّخَذَ قَوْمُ مُوسَى مِنْ بَعْدِهِ مِنْ حُلِيّهِمْ عِجْلًا جَسَدًا لَهُ خُـوَارٌ أَلَـمْ يَـرَوْا أَنّـهُ لا يُكَلّمُهُمْ وَلا يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا اتّخَذُوهُ وَكَانُوا ظَالِمِينَ.»[١]

عقوبة الإستبدال فى قوم موسى(ع)

يقول الله سبحانه وتعالى في حكاية عن النبي موسى(ع):

«قَالَ رَبِّ إِنِّى لاأَمْلِكُ إِلاّ نَفْسِى وَ أَخِى فَافْرُقْ بَيْنَنَا وَبَيْنَ الْقَـوْمِ الْفَاسِـقِينَ (٢٥) قَالَ فَإِنّهَا مُحَرّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِـى الأَرْضِ فَـلاَ تَـأْسَ عَلَـى الْقَـوْمِ الْفَاسِقِينَ.»[٢]

إن الإنفصـام عن حجـة الله الحـيّ، بمثابـة الإنفلات فـي صـحراء الأرض المليئـة بالبلايـا. وخـروج عن الجـادة الإلهيـة وطائفـة صـبغةالله والسـقوط فـي جـادة الغضـب الإلهي والإستقرار في طائفة لعنةالله.

ولا هم ولا غم لحجة الله والمؤمنين الحقيقيين، لانهم سيكونون فـي الإتصـال بـالله فـي الحلقـة الحمائيـة لله ورعايتـه. بحيـث أن بنيإسـرائيل وقبـل الإنفصـام عـن موسى(ع)، عبروا البحر وتمتعوا بالمائدة السماوية وتحول كل خوفهم إلى أمن.

إن الإستبدال هو سُنة ثابتة، قد يقع في كل زمان وبين كل قوم. وكل قوم وطائفة تقوم لها قائمة في الإلتزام العملي بالجهاد ومواكبة الوليّ المنصب من قبل حضرة

١. سورة الأعراف (٧)، الآية ١٤٨
٢. سورة المائدة (٥)، الآيتان ٢٥ و ٢٦.

الحق والتمسك باصول الدين والشريعة الإلهية، وعلى العكس، فان الآخر سيسقط في براثن الحضيض والذلة. إن هؤلاء القوم، سيشهدون تسامي و رفعة القوم البديل و الصالح. و قد بين «مثنوي مولوي» بشكل شاعري، قصة ابتلاء قوم بنياسرائيل وتركهم الأدب، وتحدث عن كيفية إنعدام التوفيق:

أطلب من الله توفيق الأدب

فقد حرم قليل الأدب من لطف الله

إن قليل الأدب يضر بنفسه فحسب

وينشر لهيب النار فى كل مكان

تصل مائدة من السماء

من دون بيع وشراء وقيل وقال

وكان عدد من بين قوم موسى

قليلى الأدب وقالوا أين الثوم والعدس

فانقطعت المائدة والرغيف عن السماء

وبقيت معاناة الزراعة والمسحاة والمنجل

وبما إن عيسى شفع لدى الحق

فارسل المائدة والغنيمة على الطبق

لكن الطائشين تخلوا عن الأدب

فالتقطوا كالمتسولين بعض النباتات

وصرخ عيسى وقال أن

هذه دائمة ولا تنقص من الأرض

إن التشاؤم والطمع والنهم

هو كفر عند الجلوس على مائدة العظام

وأمام هؤلاء الطامعين

أغلق باب الرحمة

وانقطعت الغيوم والمطر عقب منع الزكاة

و وقع الوباء بسبب الزنا

وكل ما حل لک من الظلمات و الغم

فهو ناتج عن التهور والطيش

وكل من يمارس الطيش فى التعامل مع الصديق

فقد أصبح سارق الفتوة وهو جبان

من الأدب ينتشر النور فى هذا الفلک

ومن الأدب يصبح الملک معصوما وطاهرا

وقد أورد القرآن، تنبؤا خارقا بشأن إستبدال طائفة من المسلمين محل طائفة اخرى. وقد ساعدت روايات المعصومين على تفسير وتأويل هذا الإستبدال.

ويشير الله تعالى في الآية الكريمة: «إِنْ يَشَأْ يُذْهِبْكُمْ أَيُّهَا النّاسُ وَيَأْتِ بِآخَرِينَ وَكَانَ اللّهُ عَلَى ذَلِکَ قَدِيراً»[1] إلى سُنة الإستبدال. وفي تلك الحالة ربت النبي الأكرم(ص) على ظهر سلمان الفارسي وقال: إن هؤلاء هم العجم وقوم سلمان.[2]

وقد نقل المفسرون من أهل السنة هذه الرواية.[1] ويتحدث الله تعالى في الآية ٣٨ من «سورة محمّد» بصراحة عن سُنة إستبدال قوم باخرين ويقول:

---

١. سورة النساء (٤)، الآية ١٣٣.
٢. «التبيان»، ج ٣، ص ٢٥٣؛ «مجمع البيان»، ج ٣، ص ٧٨١.

«هَاأَنْتُمْ هَؤُلاءِ تُدْعَوْنَ لِتُنفِقُوا فِي سَبِيلِ اللّهِ فَمِنْكُمْ مَنْ يَبْخَلُ وَمَنْ يَبْخَلْ فَإِنَّمَا يَبْخَلُ عَنْ نَفْسِهِ وَاللّهُ الْغَنِيُّ وَأَنْتُمُ الْفُقَرَاءُ وَإِنْ تَتَوَلَّوْا يَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ ثُمَّ لا يَكُونُوا أَمْثَالَكُمْ.»

وجاء في «مجمع البيان» نقلا عن الإمام الصادق(ع) في هذا الخصوص:

«إن تَتولوا يا مَعْشر العَرَب يَسْتَبْدِلْ قَوْماً غَيْرَكُمْ يَعنى المَوالى.»[۲]

كما ورد بانه قال:

«... والله أبْدِل بِهِم خَيْرا مِنْهُم.»

إن «سورة محمّد» هي «سورة الجهاد»، فتبدأ من مسألة الجهاد وتنتهي بمسألة الجهاد.

ويتوجه الله سبحانه وتعالى في الآية ٥٤ من سورة المائدة، إلى المؤمنين فيذكرّ بهذه السنة والإستبدال ويقول:

«يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَائِمٍ ذَلِكَ فَضْلُ اللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ.»

وعلى الرغم من أن بني‌اسرائيل شهدوا بعد سنوات متمادية من خروجهم من «مصر» معجزات وألطاف إلهية، وتمتعوا بها الواحدة تلو الأخرى، لكنهم كانوا يظنون أن كل هذا قد أعطي لهم من دون أي شروط، وأن النعمة ستكون سارية دائما إن أدوا واجباتهم، لذلك فانهم أصيبوا بمكر الله، وذاقوا فجأة طعم نكثهم العهد والتكاسل والإعراض عن الجهاد وتأدية الواجبات، ونزلوا من عرش العزة إلى فرش الذلة.

---

۱. «تفسير ماوروي»، ج ۱، ص ٤٣٥.
۲. «مجمع البيان»، ج ۹، ص ٤٦١؛ «نورالثقلين»، ج ٥، ص ٦٤.

وابتلوا بحكام جائرين ولاهثين وراء السلطة مثل نبوخذنصر، و تحملوا معاناة التشرد وأصبحوا يحملون لقب اليهودي التائه الشهير.

و يقول الله تعالى في سورتي «محمّد» و «المائدة» أن أحد أسباب هذا الإستبدال يتمثل في التكاسل في الجهاد في سبيلالله، و يقدم القوم البدلاء على أنهم مجاهدون أشداء و أقوياء، لايخافون اللوم، و يحبون الله و يحبهم الله.

«إِنّ اللّهَ يُحِبُّ الّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِى سَبِيلِهِ صَفّاً كَأَنّهُم بُنيَانٌ مّرْصُوصٌ.»[١]

إن أحد أسباب حرمان الأقوام السابقين من نعمةالله و ألطافه الدائمة، هو أنهم أصبحوا في وضع جعلهم يعانون من الحرمان من نعمات الله، و إلا فانالله تعالى لايحرم شاكري النعمة من امتلاك النعمة، وعلى العكس فانه يزيدها، بحيث قال سبحانه و تعالى:

«لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنّكُمْ.»[٢]

وبعد هذه الآية بالضبط من سورة ابراهيم، يقولالله على لسان موسى(ع) متوجها إلى قومه:

«وَ قَالَ مُوسَى إِن تَكْفُرُواْ أَنتُمْ وَ مَن فِى الأَرْضِ جَمِيعًا فَإِنَّ اللَّهَ لَغَنِىٌّ حَمِيدٌ * أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَأُ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَ عَادٍ وَ ثَمُودَ وَ الَّذِينَ مِن بَعْدِهِمْ لاَيَعْلَمُهُمْ إِلاَّاللَّهُ جَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَرَدُّواْ أَيْدِيَهُمْ فِى أَفْوَاهِهِمْ وَ قَالُواْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ وَ إِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَا إِلَيْهِ مُرِيبٍ.»[٣]

---

١. سورة الصف (٦١)، الآية ٤.
٢. سورة ابراهيم (١٤)، الآية ٧.
٣. المصدر السابق، الآيتان ٨ و ٩.

إن كلا من الأنبياء العظام الإلهيين كان يحمل رسالة ومهمة، كان جزء من الخارطة الإلهية العامة ليتحقق إن انجزت تلك المهمة مع قوم ذلك النبي وكانت لتصل سفينة سكان الأرض إلى بر الأمان.

وقد جعل الله تعالى، تنفيذ هذه الخارطة الإلهية وفي ظل هداية «كتاب الله» و مواكبة رسول الله(ص) واللذان يحظيان ب«صبغةالله»، وحسب السنة الإلهية الثابتة، رهن بمواكبة وتماشي الأمم إختياريا، وإلا فانه ليس من الصعب عليه إن أراد، أن يحقق «خارطتة العامة» حول الكون والأرض وسكانها، في لحظة وعلى يد هؤلاء الأنبياء الإلهيين العظام وحتى على يد ملك مختار.

وقد جعلت الأرض ساحة وميدانا للإبتلاء والإمتحان وذلك لتمييز الصالحين عن الطالحين، والأوفياء عن الخائنين والشهمين عن الغدرة.

والمؤسف أن الجفاء الذي مارسه قوم موسى(ع) باستمرار، أعاق تنفيذ مهمة ذلك النبي العظيم بصورة تامة، وبعد النبي موسى(ع)، لجأ قوم بنياسرائيل مرة أخرى إلى الضياع والفساد في الأرض، إلى أن استبدلهم الله وفقا لقاعدة الإستبدال بقوم آخرين، وتركهم يتخبطون بالألم والتعب والتيه، لكي يكونوا في اللعنة الدائمة، مصداقا كاملا لتيار لعنةالله.

«وَ لَمَّا رَجَعَ مُوسَى إِلَى قَوْمِهِ غَضْبَانَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِن بَعْدِي أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْ وَ أَلْقَى الْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُ إِلَيْهِ قَالَ ابْنَ أُمَّ إِنَّ الْقَوْمَ اسْتَضْعَفُونِي وَ كَادُوا يَقْتُلُونَنِي فَلَا تُشْمِتْ بِيَ الْأَعْدَاءَ وَ لَا تَجْعَلْنِي مَعَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ.»[1]

١. سورة الأعراف (٧)، الآية ١٥٠.

و تعود جذور كفر وعصيان بني‌اسرائيل وحسبما يقول الإمام الصادق(ع) إلى الحرص على الدنيا والتكبر والحسد.

و حسبما يقول الإمام الصادق(ع) فان جذور وأسس الكفر والعصيان تتمثل بثلاثة: الحرص والتكبر والحسد، اذ أن الحرص أدى إلى أن يأكل آدم من الشجرة الممنوعة وأدى التكبر إلى إن يعصي ابليس أمرالله وأدى الحسد إلى أن يقتل أحد أبناء آدم الآخر.

«قَالَ رَبِّ اغْفِرْ لِى وَلِأَخِى وَأَدْخِلْنَا فِى رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ الرَّاحِمِينَ ۞ إِنَّ الَّذِينَ اتَّخَذُوا الْعِجْلَ سَيَنَالُهُمْ غَضَبٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَذِلَّةٌ فِى الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَكَذَلِكَ نَجْزِى الْمُفْتَرِينَ»[1]

و حسبما اقترفت الأمم السابقة وجربت تقهقرها، فان ثمة أربعة عوامل، مثل: إغضاب الأولياء الإلهيين، والتماهل في الجهاد، و القصور في العمل والجحود بعد تجربة النعم، تعد من العوامل التي تؤثر على تحقق قاعدة وسُنة الإستبدال. عسى أن تتعظ كافة الأمم.

وقد بقي النبي موسى(ع) وحيدا ومن دون مؤازر وداعم على أبواب «بيت المقدس» إلى أن رحل وأصيب بني‌اسرائيل بالتيه والضياع.

«قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى الْأَرْضِ فَلَاتَأْسَ عَلَى الْقَوْمِ الْفَاسِقِينَ.»[2]

---

١. المصدر السابق، الآيتان ١٥١ و ١٥٢.
٢. سورة المائدة (٥)، الآية ٢٦.

الفصل السادس: المُبشرّ

و بعد الإتيان على ذكر النبي موسى(ع)، يتطرق «دعاء الندبة» إلى المنعطف السادس في التاريخ. إن آخر نبي لبني اسرائيل، عيسى(ع) يبشر بمجئ أحمد، نبي آخرالزمان. إن الهدف الرئيسي في الخارطة الإلهية العامة، وإرسال الرسل وإنزال الكتب، هو دين الرسول الخاتم والرسول الخاتم شخصيا، وإن كلا من الأنبياء السابقين، كانوا بمثابة مقدمة مهدوا وسهلوا، لجعل البشرية جاهزة لتقبل «الدين المتكامل والرسول الخاتم.»

ووردت رواية في «البرهان»، ج ١، ص ٤٦٠ مضمونها هو أن الرسول الخاتم كان الغاية النهائية منذ خلق جميع الأنبياء.[١]

«وَ بَعْضٌ اَوْلَدْتَهُ مِنْ غَيْرِ اَب وَآتَيْتَهُ الْبَيِّناتِ وَاَيَّدْتَهُ بِرُوحِ الْقُدُسِ، وَكُلٌّ شَرَعْتَ لَهُ شَريعَةً، وَنَهَجْتَ لَهُ مِنْهاجاً، وَتَخَيَّرْتَ لَهُ اَوْصِياءَ، مُسْتَحْفِظاً بَعْدَ مُسْتَحْفِظ مِنْ مُدَّةٍ اِلى مُدَّة.»

و كان بنواسرائيل قد اختيروا لتأدية مهمة خاصة، لكنهم وبسبب التمرد والعصيان، أغلقوا أذن الرأس والروح على الرسالة الإلهية ولجأوا على النقيض من

١. «التاريخ المنسي»، ص ٧٨.

مسيرة الأنبياء الإلهيين، إلى الوثنية والإستكبار، وبذلك وكما أسلفنا، ليس أزيلت عنهم المهمة فحسب بل أصبحت تلاحقهم اللعنة الأبدية وانضموا إلى قبيلة لعنةالله.

وكان النبي عيسى(ع)، آخر نبي بنياسرائيل، من الغصن الصغير لشجرة إبراهيم خليل الله(ع)، أي إسحاق النبي(ع)، وكان مبشرا بانتقال سلالة النبوة لأبناء النبي ابراهيم(ع) إلى غصنها الطويل، أي إبن اسماعيل النبي(ع).

وكان أنبياء بنياسرائيل من غصن إسحاق النبي(ع)، يتولون مهمة قومية وقبلية، وكانوا منضوين تحت الشريعة الموسوية ويفتقدون لموهبة الدين العالمي والقدرة على تشكيل الحكم الكوني.

وكانت البينة الجلية للنبي عيسى(ع)، هي البشرى بحلول فصل بعثة نبي آخر الزمان وظهور الدين المحمّدي المتكامل، وبالتالي نشأة الحكم الكوني الموعود على يد أحد أوصياء نبي الرحمة والشفقة أي محمّدبن عبدالله(ص).

ولم يطق أشرار بنياسرائيل ذلك، وتنكروا للنبي عيسى(ع) ليجربوا لعنةالله وينزلوا إلى آخر درجة من التعاسة. وقد أجهز هؤلاء من منطلق الحقد والضغينة على أولياء الله، وسخروا كل طاقاتهم وأرصدتهم في سبيل الحد من تشكل و تحقق الإرادة الإلهية في نشأة حكومة الصلحاء. و يبين «دعاء الندبة» إختصارا، الخارطة الإلهية العامة و يذكر الأركان و الأعمدة الطويلة للصراط المستقيم، ليذكرّ المتلقين بضرورة قياس موقعهم وتوجهم بواسطة هذا المؤشر ويؤازرهم و يعينهم حتى الإستقرار في الصراط المستقيم وأخذ صبغةالله.

ويشير القرآن الكريم في العديد من الآيات إلى قيود شريعة النبي موسى(ع) و يذكرّ بنياسرائيل:

«وَ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ أَلاَّ تَتَّخِذُواْ مِن دُونِي وَكِيلاً.»[1]

كما يقول القرآن الكريم:

«وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْكِتَابَ فَلا تَكُن فِي مِرْيَةٍ مِّن لِّقَائِهِ وَجَعَلْنَاهُ هُدًى لِّبَنِي إِسْرَائِيلَ.»[2]

وهناك الكثير من الآيات القرآنية التي تؤكد إختصاص شريعة موسى(ع) ببني‌اسرائيل، مثلما أن «التوراة» تقدم النبي موسى(ع) على أنه منقذ بني‌اسرائيل وهاديهم.

ومن هنا نفهم بان رسالة هذا النبي الكريم ومن بعده النبي عيسى(ع)، لم تكن عالمية بل اقتصرت على بني‌اسرائيل. كما أن دراسة سيرة حياة النبي الأكرم(ص) تظهر بانه صلى‌الله عليه وآله وسلّم، لم‌يكن يهوديا ولامسيحيا، بل كان يتبع الدين الحنيف للنبي إبراهيم خليل الرحمن(ع).

ويُعرّف القرآن الكريم، بني‌اسرائيل بانهم ورثة موسى(ع) وشريعته:

«وَ لَقَدْ آتَيْنَا مُوسَى الْهُدَى وَأَوْرَثْنَا بنى‌اسرائيل الْكِتَابَ.»[3]

و يقول المغفور له العلامة طباطبائي حول عالمية رسالة عيسى(ع) في ذيل الآية «و رسولا إلى بني‌اسرائيل...»:

«إن ما يستشف من ظاهر الآية هو أن عيسى(ع) كان مبعوثا لبنى‌اسرائيل فحسب، مثلما أنه يستشف ذلک من الآيات المتعلقة بموسى(ع). و مع ذلک يتضح من تفسير «الآية ٢١٣ من سورة البقرة» بان عيسى(ع) شأنه شأن موسى(ع) كان من أنبياء أولو العزم وبعث لجميع الناس فى العالم. وإضافة إلى ذلک، فان ثمة أدلة أخرى أتى بها

---

١. سورة الإسراء (١٧)، الآية ٢.
٢. سورة السجدة (٣٢)، الآية ٢٣.
٣. سورة غافر (٤٠)، الآية٥٣.

من القرآن وآيات سورة يس، من أن دين عيسى كان عالميا و ليس مختصا ببني اسرائيل، بل انه بعث من بين بنياسرائيل.»[١]

وقد بدأ بنواسرائيل النزاع والمواجهة مع الأنبياء الإلهيين، وبما أنهم كانوا استنادا إلى «التوراة» على علم بمجئ نبي آخرالزمان من ذرية اسماعيل(ع)، فانهم ركزوا جل اهتمامهم على حرف الدين الموسوي وجره إلى المسار الذي يبتغونه، أي الهيمنة و السلطوية وتأسيس الحكم العالمي الغاصب والحد من تحقق الوعد الإلهي ببعث نبي آخرالزمان والدين العالمي المتكامل.

و كان بنواسرائيل على علم بولادة عيسى(ع) وحتى طريقة ولادته. لذلك فانهم تجاهلوا جميع الشواهد والأدلة، فاتهموا مريم المقدسة(س) بالبغي. وإن لم يكن عيسى(ع) يتكلم في المهد لكان هؤلاء المشترعون المخادعون، يرجمون مريم المقدسة(س) أمام الملأ بجرم البغي.

والملفت حسب تصريح القرآن، أن عيسى(ع) علم مريم(س) كيف تتواجه و تتعامل مع الناس:

«فَكُلِی وَ اشْرَبِی وَقَرِّی عَيْنًا فَإِمَّا تَرَينَّ مِنَ الْبَشَرِ أَحَدًا فَقُولِی إِنِّی نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا.»[٢]

إن قبول بنياسرائيل للنبي عيسى(ع) كان بمثابة الإعتراف باخر فصل من نبوة بنياسرائيل ونهاية عهد فاعلية أنبياء بنياسرائيل وبالتالي الإمتثال لنبي آخرالزمان من ذرية اسماعيل(ع) أي محمّد المصطفى(ص). لذلك فان الكتاب السماوي «الانجيل» كان مبشرا ومصدقا ل«التوارة» ومبشرا بمجئ أحمد(ص).

---

١. «تفسير الميزان»، طباطبائي، سيدمحمّدحسين، ج ١٧، ص ٨٤.
٢. سورة مريم (١٩)، الآية ٢٦.

«وَ إِذْ قَالَ عِيسَى‌ابْنُ مَرْيَمَ يَا بنى‌اسرائيل إِنِّى رَسُولُ اللّهِ إِلَيْكُمْ مُصَدِّقًا لِمَا بَيْنَ يَدَىَّ مِنَ التَّوْرَاةِ وَ مُبَشِّرًا بِرَسُولٍ يَأْتِى مِنْ بَعْدِى اسْمُهُ أَحْمَدُ.»[1]

و كان النبي عيسى(ع) صرخة مدوية بوجه بني‌اسرائيل الضالين و الفريسيين[2] المختالين، ومصلحا للدين والشريعة الموسوية التي كانت قد حرفت على يد عبدة الدنيا.

إن النبي عيسى(ع) وعلى الرغم من دعايات رجال الدين المسيحيين، كان إنسانا ثوريا ومعترضا على الأساليب الجائرة لعلماء الهيكل والفريسيين المخادعين. فانتقض ضد تعاطيهم الربا وممارستهم الظلم، و أربك عليهم عملهم و تعاطيهم بالربا. و بعض أقواله في هذا الخصوص هي:

«... تبا لكم أيها الكتبة والفريسيون المرائون، الذين تغلقون باب ملكوت السماء أمام الناس! لأنكم لا تدخلونها وتمنعون الداخلين من الدخول إليها. تبا لكم أيها

---

١. سورة الصف (٦١)، الآية ٦.
٢. وكان الفريسيون أعضاء حركة يهودية ازدهرت قبل عصر المسيحية في فلسطين، وتسببت خلافاتهم باستحداث «اليهودية الحاخامية.» وتقول الرؤية التقليدية بان الفريسيين هم ممثلو تلك الفئة من اليهود الذين كانوا يؤمنون بالتقاليد الشفهية لتفسير «الكتاب المقدس»، في مقابل الصدوقيون الذين كانوا يميلون الى الفهم المبني على اللفظ للكتاب المقدس.
وكان الفريسيون الفرقة الوحيدة في اسرائيل والتي بقيت بعد واقعة ٧٠ للميلاد [هدم الهيكل]. وكان عيسى(ع) يشترك مع الفريسيين بشأن البعث والملائكة والشياطين، لكنهم قالوا أن مجالسته ل«المذنبين» وتفسيراته لبعض عموميات الشريعة، أثارت إحتجاجهم. كما أن عددا من الفريسيين انضموا إلى «كنيسة أورشليم» الأولية. (المصدر: «ثقافة أديان العالم»).
الصدوقيون: بناء على السنة التلمودية، فان هذا الإسم نابع من إسم صادوق Zadok. وكان الصدوقيون طبقة النبلاء الحاكمة. وكانوا محافظون أثرياء ملتزمين بالتوارة بقوة، وكانوا يعارضون أي حداثة وعصرنة، ويقيمون تواصلا قويا مع الهيكل. وكانوا يحتفظون بمنصب الكاهن الكبير وشغلوا موقعا مهيمنا في الهيئة الحاكمة (سنهدرين). وبسبب تفوقهم السياسي على المجتمع اليهودي، أقام الساسة الرومان معهم علاقات وثيقة. ومن جهة أخرى، وبما أنهم كانوا أثرياء، فانهم كانوا يحرصون على إقامة علاقة جيدة وسلمية مع الروم. وبشكل عام فان الصدوقيين كانوا على طرف نقيض مع الفريسيين، وكانوا يعارضون الفريسيين بالكامل سواء من الناحية العقائدية أو الناحية السياسية. وكانت تعاليمهم تتسم باربع خصائص: ١. إنكار الشريعة الشفهية؛ ٢. إعتماد الأسفار الخمسة (التوراة) في سائر كتب العهد القديم؛ ٣. إنكار القيامة والبعث والنشور، كما أنهم كانوا ينكرون الثواب والعقاب، والملائكة والروح؛ ٤.الإيمان بالرأي الإنساني المطلق والإيمان بالتفويض التام. وكان الفريسيون يعارضون الصدوقيين في هذه العقائد الأربع. فكان هؤلاء يولون قيمة للشريعة الشفهية تساوي التوراة، ويعتبرونها مصدرا مهما لدينهم. وكانت نظرتهم إلى الكتاب المقدس تختلف تماما عن الصدوقيين، و كانوا يعتمدون كتب الأنبياء و سائر رسائل الكتاب المقدس التي كان ينكرها الصدوقيون. وكان الصدوقيون الذين كانوا أقلية ضئيلة، يقيمون صداقة مع الحكام، ويتحاشون معارضة الروم، في حين أن الفريسيين، كانوا يقيمون علاقة وصداقة أكثر مع الناس العاديين والباحثين والمعلمين ولم يستسيغوا المشاركة السياسية مع الروم. (ضياء توحيدي، «معهد بحوث باقرالعلوم»،

الفريسيون المرائون! لانكم تبتلعون بيوت الأرامل وتطيلون فى الصلاة رياء، لذلك فانكم ستلاقون عذابا أشد. تبا لكم أيها الكتبة والفريسيون المرائون! لأنكم تجوبون البر والبحر للعثور على مريد، وما أن عثرتهم عليه، تجعلونه ثانية درعا لجهنم.»[١]

وكان أصحاب البذخ والترف والرفاهية، يحملون منذ العصور الغابرة إنطباعا خاطئا عن المسيح. إن النبي عيسى(ع) وبهدف الكشف عن الأفكار المغلوطة، أعلن أن هدف رسالته هو:

«لاتحسبوا أنى أتيت لأضع السلامة على الأرض، لم آت لأضع السلامة، بل السيف، لأنى أتيت لأفصل الرجل عن أبيه والبنت عن أمها والعروس عن أم زوجها. وإن أعداء الشخص، سيكونون من أهل بيته.»[٢]

إن المسيحيين يعلقون شارة الصليب على أعناقهم كعلامة وتصورا لصلب المسيح عيسى(ع) من أجل ذنوب البشرية. وقد أكد النبي عيسى(ع) مرارا بان أتباعه الحقيقيين هم من يزيلون الصليب عن أعناقهم ويسيرون على خطاه. ويمكن من هذا الكلام إستنباط، أن ماضي تعليق شارة الصليب، يعود إلى عصر عيسى(ع)، ولا يجب اعتباره علامة على صلبه. ويجب تفسير هذا التقليد، بمثابة إنكار للذات والجهوزية للشهادة في سبيل الله.»[٣]

«وعندما كان حشد غفير يسيرون معه، توجه إليهم وقال: إن أتى أحد عندي ولم يعتبر أباه وأمه وزوجته وبنيه وأشقائه وشقيقاته، وحتى نفسه عدوا له، فانه لا يمكن

١. «متى» ٢٣: ١ ٣٦؛ «لوقا» ١١: ٣٩ ٥٤؛ «التعرف على الأديان الكبرى»، حسين توفيقي، صص ١١٩ و ١٢٠.
٢. «التعرف على الأديان الكبرى»، ص ١١٧، نقلا عن «متى» ١٠:٣٤ ٣٦.
٣. المصدر السابق، ص ١١٦.

أن يكون تلميذي. ومن لا يزيل صليبه ولا يمشي من ورائي، لا يمكن له أن يكون تلميذي.»[١]

والآن قارنوا هذا الكلام الجهادي مع الإنطباع المحرف لبعض المسيحيين الذين يروجون لنوع من الإستكانة والمذلة ويعلنون: من وجه صفعة لك، فادر له الطرف الآخر من وجهك.

«ومن ثم دعا الناس وتلامذته فقال: من يريد أن يسير خلفي، فيجب عليه إنكار ذاته وإزالة صليبه ومن ثم يتبعني، لانه من يريد إنقاذ نفسه، فليهلكها ومن يريد هلاك نفسه من أجلي والإنجيل، فليحررها.»[٢]

إن اليهود المخادعين الذين رأوا الوجه الثوري لعيسى(ع)، تألبوا ضده. وأجروا مشاورات وصبوا جل سعيهم على إتهامه والبحث عن سبيل لمعاقبته على يد القادة العسكريين الرومان.

وجاب عيسى(ع) والحواريون معه، البلاد مدينة مدينة وقرية قرية، وأدى واجبه ومهمته الإلهية بقوة، لكن دخوله إلى «أورشليم» زعزع دعائم عرش الفريسيين واليهود المتغطرسين ودفعهم للتواطؤ ضده.

وبعد وصوله إلى «أورشليم» توجه النبي عيسى(ع) إلى «الهيكل» وعطل دكاكين الربا والمتجمعين في الهيكل وألقى موعظة لاذعة. وكل هذا كان كافيا لتواطؤ علماء اليهود والقبض عليه. وعندما أصبحت ملاحقة وإعتقال النبي عيسى(ع) حتمية وقريبة وعلم أنهم سيعاملونه كمجرم، بذل آخر جهده من أجل الدفاع المسلح، لكنه لم يلق ردا مؤاتيا:

---

١. لوقا: ١٤: ٢٥ ٢٦؛ «التعرف على الأديان الكبرى»، ص ١١٦.
٢. مرقس ٨: ٣٤ ٣٥؛ لوقا: ٢٣:٩ ٢٥؛ «التعرف على الأديان الكبرى»، ص ١١٧.

«ومن ثم قال لهم: ... من لا يملك سيفا، فليبع ثيابه، ويشترى به سيفا، لأنى أقول لكم بان هذه الكتابة، أى التنبؤ يجب أن تتحق لدى، أن أحسب على المذنبين، لان كل ما هو بشأنى سينقضى. قالوا:[أيها الرب، الآن سيفان]. قال: يكفى.»[١]

وبما أن أنصار عيسى وبسبب تصورهم الخاطئ عن المسيح الموعود، لم يشعروا بالخطر المحدق به لذلك لم يأخذوا أمره بشراء السيف على محمل الجد، لكن عندما هاجمه جمع غفير بالسيوف والعصي، أدركوا حينها أهمية حمل السلاح، لكن إستخدام السيف في تلك الحالة الحرجة، كان عقيما بسبب عدم الجهوزية المسبقة وكان يؤدي إلى القصاص. لذلك فان النبي عيسى(ع) منعهم من هذا العمل في تلك الظروف.[٢]

إن معاناة المسيح عيسى(ع) في آخر أيام حياته بما فيها خيانة تلميذه يهودا له وإنكار بطرس ومحاكمته على يد اليهود بتهمة عدم الإيمان ومحاكمته لدى الحاكم الرومي بنطيوس بيلاطس بتهمة نقض القوانين المدنية وإدانته بالصلب، يميط اللثام عن علماء اليهود الذين كانوا غارقين في الفساد والضياع.

ومع ذلك فان المسيح(ع) أتم الحجة على مجتمع بنيإسرائيل حتى آخر لحظات من تواجده بين الناس؛

بشرّ بحلول فصل بعثة نبي آخر الزمان؛

أرسى أساس الدين الإلهي المسيحي ليكون خطا مميزا واعلان نهاية عهد فاعلية الدين الموسوي.

---

١. لوقا ٢٢:٣٦ ٣٨؛ «التعرف على الأديان الكبرى»، ص ١١٧.
٢. المصدر السابق.

وبعد عتاب طويل، توجه النبي عيسى(ع) إلى مدينة القدس وقال:

«يا أبناء أورشليم! قتلة أنبيائكم وراجمو مرسليكم، كم مرة أجمع فيها ظلم أبنائك، كالطير الذى يحتضن تحت جناحيه أفراخه ولم تطلبوا. والآن يترك بيتكم مدمرا لكم، لأنى أقول لكم، بانكم لن ترونى بعد الآن حتى تقولوا مبارك، أنه يأتى باسم الله.»[١]

و بعد النبي عيسى(ع) مرت المسيحية الفتية بتحديات مختلفة. فالمسيحيون الأوائل وجدوا في زحمة إيذاء وأزعاجات اليهود، أن هويتهم الدينية والسياسية والفلسفية تواجه تحديا من قبل الأرضيات اليهودية السائدة والسيادة السياسية للقادة الروحيين والإنطباعات الفلسفية السائدة في ذلك العصر، وفتحوا للأسف ذراعيهم مبكرا أمام الأنماط المختلفة المحرفة في البحر الثقافي والإجتماعي والسياسي المتموج للقرن الأول بعد الميلاد.

إن أهم وأول تحريف، وقع على يد رجل من اليهود المتعصبين ويدعى بولس أو شاؤول اليهودي.

وكان شاؤول يعيش في مدينة «طرسوس» وكان أبوه من اليهود المؤمنين بالتقاليد والعادات اليهودية وأمه من الشخصيات المميزة وقدمت أعمالا ملحوظة. لذلك فان الحكومة الرومانية دعمتها من خلال مكافآت معنوية.[٢]

ومهد بولس من خلال التدخل والتصرف في اللاهوت والشريعة المسيحية، لظهور الإنتقائية والإنحراف عن المبادئ والتعاليم الوحيانية للمسيح عيسى(ع).

ويقول الباحث المسيحي مايكل هارت في كتاب «مائة شخصية خالدة»:

---

١. متى ٢٣: ٣٧ ٣٩؛ لوقا ١٣: ٣٤ ٣٥؛ المصدر السابق، ص ١٢١.
٢. «تفسير العهد الجديد»، الفصل التاسع، هداية شاؤول.

«يجب القول بان مؤسس المسيحية لم يكن شخصا واحدا، بل أنها تأسست على يد شخصين، المسيح(ع) و بولس، ولذلک فانه يجب تقسيم هذا الإفتخار بينهما. و لذلک فان المسيح(ع) كان مؤسس المبادئ الأخلاقية للمسيحية، لكن مبادئها اللاهوتية وضعت على يد بولس. ومن هذا المنطلق فان المسيح لم يبشر باى من الحالات التى جاء بها بولس، و كان بولس أول من استدعى المسيح(ع).»

ويقول غوستاف لوبون حول التغيرات الهائلة التي طرأت على هيكلية المسيحية البولسية:

«إن بولس أسس ديننا باسم عيسى، فى حين إن كان المسيح على قيد الحياة، لم يكن ليدرک شيئا من هذا الدين، وإن كان يقال للحواريين الإثنى عشر بان الله قد تجسد فى عيسى، لما كانوا يطيقون هذه الفضيحة وكان يصرخون باعلى صوتهم اعتراضا على ذلک.»[١]

وقد أدخل بولس طيلة سنوات نشاطه وبشكل تدريجي، تغيرات واسعة على المسيحية الفتية، بما في ذلك:

١. إضفاء الطابع الألوهي على السيد المسيح(ع) (تجسد الله في المسيح)؛
٢. إبطال جميع الأناجيل ما عدا «إنجيل بولس.»
٣. نبذ ضرورة العمل والتكليف في مقابل الإيمان البحت (كفاية الإيمان)؛
٤. حقن روح الإستسلام أمام الحكام؛
٥. التمهيد للمصالحة بين اليهودية والمسيحية؛
٦. عقد نطفة المسيحية اليهودية؛

١. «حياة الحقائق»، غوستاف لوبون، ص ١٨٧.

۷. و ... وقد تغلب تماما على المسيحية الأولية عام ۱٤۰ للميلاد وأدى إلى قيام المسيحية المتهودة البولسية في العالم.

وهذا الكتاب ليس بصدد دراسة وتبيان جميع دقائق الأمور، بل يكتفي بالإشارة إلى المنعطفات المهمة في التاريخ. على أمل أن يهتم الشبان الأعزاء بدراسة كافة الدقائق والقضايا الرئيسية من المصادر الأخرى.

إن كلا من الأنبياء الإلهيين بدء من آدم(ع) وصولا إلى خاتم النبيين(ص)، كانوا في ضوء موقعهم ومنزلتهم والظروف التاريخية لعصرهم، صائنين للشريعة وأركان الدين التوحيدي. إنهم كانوا الحجة والدليل العلمي البين الذي أظهره الأولياء و الأوصياء الحق وذكروا الناس بصراط نيل حقيقة المعنى. و حسبما جاء في «دعاء الندبة»:

«وَلَئَلّا يَزُولَ الْحَقُّ عَنْ مَقَرِّهِ وَيَغْلِبَ الْباطِلُ عَلى اَهْلِهِ، وَلا يَقُولَ اَحَدٌ لَوْلا اَرْسَلْتَ اِلَيْنا رَسُولاً مُنْذِراً وَاَقَمْتَ لَنا عَلَماً هادِياً فَنَتَّبِعَ آياتِکَ مِنْ قَبْلِ اَنْ نَذِلَّ وَنَخْزى، اِلى اَنِ انْتَهَيْتَ بِالاَمْرِ اِلى حَبيبِکَ وَنَجيبِکَ محمّد صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.»

إن أحد أسباب إنغماس الناس لاسيما شبابنا في بحر الشبهات ووقوعهم في براثن الفِرَق والنِحَل، يعود إلى تعطل الدراسات الثقافية والقراءة السطحية للآيات و الروايات و الأدعية المأثورة. وعادة:

۱. إنهم و بناء على التعاليم المحرفة، لايعتبرون مصدر الخلقة و الأب الأول لخلق العالم، أي آدم(ع)، بانه يحمل و يحوي العلم و المعرفة و الرؤية التوحيدية و المطلع على رسالة الأنبياء والعارف بالصيرورة في عصر الكون؛

۲. إن الجماهير، لا تميز سلسلة الهداية عن سلسلة الضلال؛ (عدم المعرفة حول الحجج الإلهيين)

٣. لاينظرون إلى الوقائع والحوادث الكبيرة في المنعطفات التاريخية المهمة على هيئة تيار، ويعتبرون كل ذلك كنقاط أو جزر منعزلة عن بعضها البعض؛

٤. إنهم يغفلون الخارطة الإلهية العامة ويحسبون أن الكون متروك عنانه لاعصار الحوادث وهواجس الأشخاص؛

٥. لاينظرون إلى الآفاق المستقبلية و المصير النهائي للعالم وسكان العالم (عالم المستقبل ومستقبل العالم) والذي أشير اليه في المصادر الدينية وأقوال عموم الأنبياء الإلهيين وأوصيائهم؛

٦. يفتقدون إلى المعرفة والوعي الجديرين بشأن النظرة العالمية والإنطباع العام لقبيلة اللعنة ومنكري ومعاندي ومبغضي قبيلة صبغةالله، في حين أن هذه النظرة العالمية أدت طوال التاريخ، ومن خلال تغير الهيئة (حفظ الطبيعة الشيطانية) إلى قرصنة ابن ادم جيلا بعد جيل وجره إلى الضلال والتيه.

و بناء على ذلك، فان هذه النقاط الرئيسية الست، تشكل الروح السائدة والخفية في هيكل عمود الأدعية و الزيارات المأثورة. لكن المؤسف أن عامة الناس وعوامهم، ينظرون إلى هذه المجموعة الضخمة كسلم للصعود إلى الجنة و التكفير عن الذنوب و كسب الثواب.

إن غياب هذه المجموعة عن المصادر النظرية الشيعية، بين سائر مصادر المعرفة والغفلة عن هذا الأحتياطي في الحوزات العلمية والمراجع الجامعية والأكاديمية في العالم الاسلامي، يعد من أكثر الموضوعات الملفتة أسفا والقابلة للتوبيخ.

و للأسف فان المجال لايسعني هنا لكي أسبر أغوار الساحات الباطنية لهذه المجموعة النفيسة، بل عرفت وذكرت حسب الدراسات الثقافية، وجها من أوجه هكذا مصادر.

سلمة واحدة حتى السماء السابعة

لقد تم تداول رسالة وتراث الأنبياء السلف نبيا بعد نبي إلى أن وصلا إلى آخر الرسل، خاتم الأنبياء(ص). وتم في «زيارة وارث» التعريف بهذه السلالة المقدسة و تراثها الحق.

و قد روى صفوان جمّال «زيارة وارث» عن الإمام الصادق(ع)، و كما يبدو من العنوان، فان الإمام عليه السلام و أثناء زيارة أبي عبدالله الحسين(ع)، يعتبر الإمام الحسين(ع) بانه وارث سلالة الأنبياء والأوصياء، و يقول في أول فقرة من هذه السلسلة:

«اَلسَّلامُ عَلَيْکَ يا وارِثَ آدَمَ صَفْوَةِاللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْکَ يا وارِثَ نُوح نَبِيِّاللهِ، اَلسَّلامُ عَلَيْکَ يا وارِثَ اِبْراهيمَ خَليلِ اللهِ ... .»

ففي الإنطباع الإلهي والإسلامي فان خلقة الكون مبنية على العلم والحكمة، بل أن أول مخلوق كان عالما و نبيا وحاملا لمهمة سماوية لهداية الناس، و حجةالله و الواعي بمنطلق و وجهة سير و سفر الانسان في الأرض.

ونقرأ في فقرة أخرى من «دعاء الندبة»:

«اِلى اَنِ انْتَهَيْتَ بِالاَمْرِ اِلى حَبيبِکَ وَ نَجيبِکَ محمّد صَلّى اللهُ عَلَيْهِ وَآلِهِ.»

إن النظام المعرفي المبني على الإنطباعات الوحيانية يعطي تفسيرا خاصا عن منطلق وغاية الوجود من خلال تقديم تعرف واعلان موقع الانسان والعالم المادي و الكائنات المنتشرة في الكون، وهو تفسير يختلف من حيث المبادئ عما يعرف بعلم كونيات العصر الجديد.

إننا نواجه في العصر الجديد تفسيرا جديدا عن العالم والانسان، يختلف في الأساس عن منظومة علم الكونيات الوحيانية الدينية. إن النزعة الدنيوية وغير الدينية للقرنين السابع عشر والثامن عشر تجاه الوجود، أضفت الأصالة على الزمان و المكان الفانيين الدنيويين والماديين وزوقتهما وزينتهما في نظر الانسان، من خلال إزالة القدسية عن العالم ونبذ العلم المقدس وعلم الكونيات الديني. ومن هنا، فان الذات المحورية للانسان المنقطع عن السماء والمنفصل عن المصادر الوحيانية و التجارب الدينية، جعلت الإنطباع المبني على التجارب الحسية والموضوعية، أساسا للنظرية والتطبيق لديه ليبني بذلك عالما و انسانا حديثين.

إن قبول العقل الميكانيكي و المعاش كحجة نهائية، أفضى إلى إنكار ما بعد الطبيعة و كل أمر باطني وغيبي على امتداد الوجود، لكي يرفض وينبذ أنصار المذهب الوضعي[١] أحكام العلوم والإنطباعات الدينية في العصر الحديث. وحتى أنهم ألقوا بظلال من الشك على صحة الأحكام الواردة في المصادر الوحيانية و ربطوا أثر أي حكم وقاعدة على قبولهما في محكمة العلوم الحديثة و محك المذهب التجريبي.

إن المذهب التجريبي[٢] يقيّم المعرفة على التجربة المباشرة و الملاحظة التي تقوم على ما تدركه الحواس وحدها ويرى أن كل قول لا يمكن فحصه عن طرق الحواس لامعنى له.

---

١. المذهب الوضعي، هو مصطلح فلسفي وضعه الفيلسوف وعالم الإجتماع الفرنسي اغوست كونت في القرن الثامن عشر. وكان كونت يؤمن بان الجبر التاريخي، سيأخذ بالبشرية إلى الإتجاه الذي تزول فيه الرؤية الدينية والفلسفية ويبقى شكل من الفكر المتعلق بالمعرفة اليقينية وتجربة العلم. وفي هذا العصر الجديد سيزول تاريخ المؤسسات الإجتماعية المتعلقة بالدين والفلسفة. ويكتفي أنصار. المذهب الوضعي بمعطيات الحواس وأضفوا عليها أصالة ويقينية.

٢. Empiricism.

وهذه الآلية أعادت في كل فرع من تفرعات العلوم الجديدة، النظر في أحكام العلوم المقدسة والتقليدية ما أدى إلى إعطائها تفسيرا جديدا بهذا الشأن.

و قيل حول عصر التنوير[1]:

في عصر التنوير، تعتمد الآلية التجريبية والعلمية في جميع الميادين، باسم العقل، لمحاربة الخرافات والسذاجة والتعنت الديني. لتكن لديك الجرأة على المعرفة أو الشهامة على اتباع عقلك، هو شعار اعتمده كونت لعصر التنوير.[2]

وأدى هذا العصر إلى ظهور نمط جديد من تصنيف العلوم و التعاريف و المصطلحات التفسيرية الجديدة حول نشأة الخلق ونشأة العالم و الإنسان و بالتالي السير ونهاية الوجود و العالم.

و قلما نجد اليوم تلميذا أو طالبا لايعرف شيئا عن فرضية «تطور الأنواع» و «الإنتقاء الطبيعي» والصراع من أجل البقاء، أو ألا ينظر من هذه الزاوية إلى نشأة الكائنات و موقعها في الكون.

---

١. إن المؤرخين يقسمون عادة التاريخ إلى عصور مختلفة، مثل العصر القديم والعصور الوسطى والعصر الجديد. وينقسم العصر الجديد بحد ذاته إلى عصور أخرى، بما فيها عصر النهضة والإصلاح الديني والتنوير. ويغطي عصرا النهضة والإصلاح، القرنين الخامس عشر والسادس عشر فيما يغطي التنوير القرنين السابع عشر والثامن عشر، لكن لماذا سمي القرن الثامن عشر بعصر التنوير؟
بما أن القرن الثامن عشر يشبه إلى حد كبير ثقافة «اليونان» في فترة ٤٠٠- ٥٣٠ قبل الميلاد، فانهم أطلقوا على هذا العصر شأنه شأن تلك الدورة من تاريخ اليونان، إسم عصر التنوير. ففي تلك الحقبة من تاريخ الثقافة اليونانية، يسعى العقل لفرض سيادته في جميع المجالات ومحاربة الخرافات التي ورثت عن العصور السابقة، ونجح في ذلك، وأرسى صرحا عقلانيا وفلسفيا [وغير ديني] بحيث أن العلم والفلسفة الجديدة بنيتا عليه حتى... إن أساس تنوير القرن الثامن عشر يمثل «الرؤية الدنيوية» عن الحياة، وبرز خلال عصر النهضة في الفن والدين والسياسة والعلم الطبيعي. ويجب البحث عن بدايات ومنطلقات فلسفة التنوير في بريطانيا. ومن ثم انتقلت هذه الحركة من بريطانيا إلى فرنسا ومن ثم إلى المانيا.
ارنست كاسيرر، فلسفة التنوير، ترجمة يد الله موفق، نيلوفر للنشر، ١٣٧٠، صص ١٦ و ١٧
وتعادل مفردة التنوير، الكلمة الإنجليزية Enlightment. والألمانية Aofklaetung
لوسين غلدمن، فلسفة التنوير، ترجمة: شيوا كاوياني، فكر روز للنشر، ١٣٧٥، ص ١٦
٢. «ظهور وسقوط الليبرالية»، ص ٢٧٩.

والمؤسف أننا شهدنا خلال العقود الأخيرة، تفسيرات جديدة من هذا القبيل، حول العالم والانسان من قبل بعض علماء الدين أيضا.

واعتبر لامارك[١] بوصفه رائد علم الأحياء الحديث أن التغيرات والتحورات التي تطال جسم الحيوان والنبات، تتسم بطابع مادي. وكان أول من طرح نظرية التطور الطبيعي. و من ثم جاء السير ويليام لورنس فوسع نظرية لاماراك من خلال محاضراته كما أدى تشمبر نفس الشئ في كتابه «الآثار المتبقية عن التاريخ الطبيعي للخلقة» و اسبنسر في أول عمل له، كما حول تشارلز داروين في كتابه «أصل الأنواع» هذه النظرية إلى شكلها المعتمد.[٢]

ومذاك، أعلن من خلال الإستناد إلى مبدأ التطور:

إن كل نوع من الأنواع هو أكمل من الكائنات التي سبقته، وبعبارة أخرى، فان كل كائن في نسبة قريبة من الكائن الذي يخلفه، وهم متصلون كحلقات سلسلة واحدة، في حين أن الكائن السابق، هو أكثر نقصا وأقل نموا من الكائن التالي من أي ناحية. فضلا عن أن هذا التغير والتطور، يتسمان بطابع مادي ويؤديان إلى ظهور أشكال خاصة للأجسام.

إن كل استناد فلسفة علم الأحياء على الهيكلية الخارجية والوجه المادي للحيوانات. فقد أغفل هؤلاء الوجه الديني والماورائي للكائنات، ليعتبروا أن الكون، يستم بطابع مادي فحسب.

ويرى داروين، أنه يجب الإستدلال بأسس لبرهنة أن الانسان أصله حيوان:

---

١. جان باتيست لامارك، عالم أحياء فرنسي وأول من أثار للمرة الأولى فرضية التطور. وهو واضع المذهب اللاماركي.
٢. بارنز ويبكي، «تاريخ الفكر الإجتماعي»، ج ٢، ص ٢٠٣.

أولاً، إن الانسان ومن حيث الخصائص الجسدية، لا يتصف باي صفة خاصة به؛

ثانياً، إن نفسانيات الانسان ورغم النمو والتطور الخارقين، لاتعد من الخصائص الباتة، و فضلا عن ذلك، فانها من نوعية نفسانيات الحيوانات العليا.

والحصيلة أنه يجب إظهار، أنه ليس هناك أي تباين أساسي بين الانسان و الحيوان من حيث النفسانيات فحسب، بل أن أوجه الخلاف بينهما تكمن في الكم ولا نوعية القوى العقلانية.[١]

وإن كان ديكارت،[٢] أعلن بعد شكه الكبير و المعروف:

«أنا أفكر إذن أنا موجود.» إنه افترض الفكر النفساني الذي بقي رهينة العقل الكمي، بانه مؤشر على العالم والانسان، كما أن الباحثين الذين اهتموا بموضوع الانسان، اعتبروا الحياة بانها مجموعة من الصفات المشتركة بين النبات والحيوان، تؤدي إلى الميلاد والتوالد والموت. وقد حدد علماء الأحياء مصير الموت والحياة بما يتناسب مع إنطباعاتهم، بحيث أن الموت كان مسالة منفصلة عن ماوراء الطبيعة وكانت تتميز بالقانون في الجهاز النظري لعلماء الأحياء، وبعبارة أخرى، فان مقام ومنزلة الانسان تنزلت من كائن يفكر بالموت والمعاد إلى حيوان يقف في المسار التكويني على قدميه، لان الانسان لم يكن ذلك الكائن الذي يحمل بباطنه الروح المجردة من المادة. ومن هذا المنطلق، فان الحياة السامية، تحولت إلى حياة حيوانية، لان البشرية صبت جل اهتمامها على إضفاء السلطة على القوى الحيوانية لكي تتمتع بجميع مواهب الحياة الحيوانية (الأكل والنوم والتوالد)، لا بل لتتواجه مع قضية تدعى الموت والتي يبدو أنها بقيت من دون حل، وتأخير حلوله المؤلم والأسود بمدد

١. المصدر السابق، ص ٦٣.
٢. رينة ديكارت، ١٥٩٦ ــ ١٦٥٠ للميلاد، رياضي وفيلسوف فرنسي.

تلك العلوم الحياتية. وهذا التصور، أدخل حرصا وولعا لاينتهيان إلى روح الانسان، لكي يعمل حتى بثمن القضاء على نظرائه في الخلق، على توسيع البيئة المحيطة به من أجل البقاء والمزيد من التمتع. لذلك فان الزمان الحاضر، بدا له مزخرفا ومزينا وخلابا، بحيث أصبح مذهب الحاضر، مذهبا مقبولا عنده.

و يتحدث كونت عن الإنجاز الرئيسي لعصر التنوير فيقول:

«إنى أضع الإنجاز الرئيسى للتنوير أى خروج الانسان من الكمين ذاتى الصنع بين الشؤون الدينية. وعملى هذا يأتى من منطلق أن الحكام لا يميلون أبدا إلى الإضطلاع بدور المراقب تجاه أنصارهم فى القضايا الفنية والعلمية. و فضلا عن ذلك، فان هذا الإعتماد الدينى، أكثر ضررا و مذلة من جميع العوامل.»[١]

إن مفروضات من هذا القبيل خلال القرون الجديدة، اتسمت بطابع علمي جديد أيضا وتحولت إلى مصدر للتعاليم الأكاديمية، ليعتبروا أن مجمل الإنطباعات و التعليمات السابقة (المبنية على التقاليد الدينية والعلم المقدس الوحياني) نابعة من الجهل والخرافة و ليعلنوا بأن مجمل توجهات ومنجزات العصر الجديد هي أصيلة و تحظى باسمى مراتب الإنطباعات والمكاسب البشرية وهي حتمية و قطعية.

و هؤلاء أعلنوا في الحقيقة بان الانسان ومع تجاوزه مرحلة الطفولة و الحداثة، وصل إلى مرحلة كماله ونموه الأكمل، وبالتالي فان الغرب ومنجزاته العلمية و الحضارية، هو في ذروة المنجزات الثقافية والحضارية للأمم والشعوب الماضية. لذلك فانه يتم تحديد تاريخ جميع الشعوب والأمم في ذيل ذلك وان عامة الشعوب والأمم يجب أن تقتفي أثر الغرب في النظرية والتطبيق وتتبعه في المجالين الثقافي و الحضاري.

---

١. «فلسفة التنوير»، لوسيون غلدمن، ص ٣٣.

إنهم يتصورون بان قطار الحياة وحضور الانسان، قد عبر المحطة الدنيا والوضعية الأولية، و يمضي مرحلة بمرحلة إلى الأمام و قد وصل اليوم إلى المحطة الثقافية و الحضارية للعصر الحديث. و يمكن اعتبار هذه المفروضات بانها تشكل جوهر و روح عامة تفرعات علم الأحياء و علم النفس وعلم الإجتماع و السياسة و الإقتصاد.

إن تحديد ونقد هذه المنظومة القائمة على المفروضات غير المتقنة وغير الوحيانية والمنتمية لهذا العالم المادي والتي تحمل وتحوي في طياتها رؤى أحادية النظرة إلى الانسان والعالم، رهن باعادة فحص ودراسة النظام المعرفي المبني على الإنطباعات الوحيانية، الأمر الذي اعتبر المعصومون أن من واجبهم رسمه و تبيانه وتفسيره بالإتكاء على الكلام القدسي الوحياني «القرآن.»

و ربما لهذا السبب وبدليل أهمية وموقع النظام المعرفي وتقدمه على سائر الموضوعات، يبدأ الإمام المعصوم(ع) في «دعاء الندبة» من منشأ ومصدر الخلقة و نشأة الكون والوجود لرسم هذا النظام المعرفي، و على النقيض من المنظومة الغربية غير الوحيانية، فانه لا يعتبر أن هذا النظام نابع من الجهل والخرافة وهو لايستند إلى المادة عديمة الشعور، بل يستند إلى أعلى و أكثر مراتب الخلقة نورانية وروحانية وعلما، أي الخلقة النورية التي تحمل أكمل كتاب سماوي وتروج لأكمل دين وحياني، أي الخلقة النورية للنبي الأكرم(ص) وأهل بيته المكرمين.

إن الأديان التوحيدية والكلام الوحياني، يربطان منشأ وبداية الخلقة بالحكمة والنورانية والعلم، ويعتبران أن سير التطور يتحرك من الوجود العالي الى الوجود الداني. لذلك، فانه يتم في السلسلة التراتيبية، تعريف الحيوان والنبات وبعدهما الجماد في أسفل المراتب. و في هذه الرؤية فانه لامكان للإرتباك والصدفة والعبثية وانعدام

الهدف، وأن كل وجزء الوجود، يقعان في جميع المراتب الروحية والمادية، في ظرف تقديراتهم ومقدراتهم المحددة، ويتجهان من بداية الوجود نحو الوجهة النهائية، لكي يتحقق المقصد النهائي لخالق الكون، الله المتعال في جميع المراتب.

إن الأولوية والأفضلية في هذه المنظومة الشريفة، تعود إلى الوجود العالي الذي يحوي و يحمل أطهر وأجدر وأعلى و أسمى مراتب الصفات المتعالية و أن الآخرين يقعون حسب تمتعهم بهذه الصفات في المراتب اللاحقة.

إن هذه المنظومة وهيكليتها ومراتبها، تحتضن الفطرة الطاهرة و العقل السليم.

إن الإعراض عن هذه المنظومة والتوجه نحو العلم المنقطع عن الإنطباع الوحياني، أي ما حلّ في الحقبة الغربية المعاصرة بالانسان، أدى إلى إنقلاب الرؤية و بالتالي إنقلاب في الثقافة وإنقلاب في العمل والسير في الأرض، أي تحول سير وسفر الأنفس والآفاق، من الباطن إلى الظاهر، من الكل إلى الجزء، من عالم الروح إلى عالم الجسم، وفي المراتب اللاحقة، فان السير من الظاهر إلى الظاهر، طال أبناء البشرية.

إن هذه الواقعة، نبعت من الإقلاع عن التفكير، بالمعنى الأصيل للكلمة، وتم نسيان أن السير من الظاهر إلى الظاهر، أصاب الانسان بالنظرة الجزئية، والنظرة الجزئية إلى الكون والإعراض عن الإنطباع العام وبالتالي الغفلة عن الكل المطلق و رؤية الأجزاء المنتشرة في ساحة الوجود.

و يمكن إختزال كل هذا في الإصابة بالتنوير. إن التنوير هو حصيلة التغير والتحول. إن المثقف و في ظل نظرته الظاهرية، يُعرض عن مشاهدة باطن الكون، ليجعل في عملية السير من الظاهر إلى الظاهر الذي هو من أعراض غلبة النفس الأمارة، العالم ساحة تصول فيه المجادلات والخلجانات والنفس الأمارة.

إن الإصابة بالشبهة العلمية والشهوة العلمية، تعد من أبرز أعراض مرض التنوير القاتل، بحيث يمكن اعتبار التغير والتبدل المتتالين في الإنطباعات والتحرك على طريق التجربة والخطأ، في زمرة هذه الأعراض. ويمكن اعتبار كل هذا، ناتج عن محورية الذات الانسانية المنقطعة عن الإنطباع الكلي المتفكر و النابع من الكلام الوحياني المزكى. إن التلون والتغير والنظرة الظاهرية والخلجان والهيجان والشبهة والشهوة والشك في النظرية والتطبيق، تعد كلها من النتائج الحتمية وتبعات محورية الذات. وحسبما يقول (الشاعر الايراني) حافظ الشيرازي:

إننا نقطة الإستسلام فى دائرة القسمة

اللطف هو ما تفكر به أنت والحكم هو ما تصدره أنت

ليس المهم ما هو فكرنا وما هو رأينا فى عالم الشطارة

لان الأنانية والتزمت بالرأى هما كفر فى هذا المذهب

إن أحد أهم مكائد إبليس اللعين ضد الانسان في العصر الجديد ونفذ على يد سلسلة من علماء اليهود الملحدين، هو إظهار أن الانسان يفتقد إلى التاريخ و الجذور، ونسب خلق الانسان إلى منشأ غير إلهي ومليئ بالجهل والخرافة.

ويعد تشارلز داروين إحدى حلقات هذه السلسلة. ونسب من خلال عرضه فرضية التطور، وعلى النقيض من الأديان الإلهية، منشأ الخلقة إلى الجهل وأكثر الطبقات ظلمة وتزويرا لكي يتم إظهار الانسان بانه كائن بلا تاريخ وجاء إلى الوجود على اثر سلسلة من الأحداث والقفزات بمنشأ حيواني بحت ويفتقد إلى أي وعي وحكمة ومعنى للمجئ والذهاب. وأول نتائج هذه المفروضات المزورة و المجهولة، هو إنفلات الانسان وتقلقله أمام الحوادث والهواجس. كقشة تطفو فوق أمواج بحر هائج.

إن الأديان التوحيدية التي عرفت الانسان على أنه كائن ذي نشأة إلهية ونابع من زلال الحكمة الرحمانية، أماطت قبل كل شئ اللثام عن الهوية الحقيقية للانسان، حتى يستند الإنسان إلى هذه الهوية ولا يخرج في مسار سلسلة الأنبياء والرسل عن الفطرة الإلهية الطاهرة، ويرتقي السلالم حتى تجربة أعلى مراتب الكمال. إن أدعية وزيارات مثل «دعاء الندبة» وفضلا عن أنها تذكرّ الانسان بداية بهذه الهوية الحقيقية، تعرف سلسلة الأنبياء والرسل، و تكشف عن المنعطفات، و تتحدث عن المقصد والوجهة، أي غلبةالدين الكامل على جميع الملل والنحل «تُظهر دينهُ عَلى الدين كُلهِ» وتبشر بحلول فصل تأسيس الدولة الكريمة العادلة تحت لواء الإمام المبين الحق، وتكشف النقاب عن مصير هذا السير والسفر وتمحو إلى الأبد الحيرة والإنفعال عن ساحة الحياة الفردية والاجتماعية للبشرية.

و إضافة إلى هذا، فان الأدعية والزيارات، تذكرّ الانسان المؤمن والموحد بالخلقة النورية والروحية وابتناء العوامل المادية على هذا العالم.

إن تبيان تقدم العالم النوري على العالم المادي في تعريف و لسان الوحي والروايات، في خلق العالم والانسان، يحطم جميع قيود العالم المُلكي والحصر الزماني والمكاني، ويربط الانسان بالأبدية والزمان الباقي. وفي المقابل، فان الإنطباع المادي يحصر مجمل الصيرورة في حدود الزمان والمكان الفانيين وينتزع من الانسان إمكانية ظهور وبروز جميع المواهب والطاقات فوق الزمانية والماوراء الطبيعية. ويرى أن الإنطباع الحديث للانسان هو في عرض سائر الموجودات كالنباتات والحيوانات و يعتبر أن كل طاقاته وقدراته ناتجة عن التفاعلات المادية ومن مظاهر المادة. ومن هنا فان العلوم الجديدة، تعجز عن تبرير وتفسير قسم كبير من تفاعلات الانسان، وتضطر للإنكار أو السكوت.

إن هذا الوجه من حقيقة الوجود وبسبب غلبة العلم الحديث، حذف للأسف تماما عن جدول أعمال الدراسات ورؤية الناس وحتى الحوزات العلمية.

إن صرح العلوم الحديثة والجديدة والإنطباع العام الناتج عنها حول الانسان و العالم، قائم على الرؤية المادية. لذلك فانه يتنكر أساسا للنشأة غيرالمادية والروحانية للوجود وينكر ابتناء الكون على الخلقة النورية وماوراء الطبيعة. لذلك فانه يعتبر تقدم وتأخر مجئ وذهاب الكائنات، متصل بتقدم و تأخر حضور و ظهور صورتها المادية في الأرض.

و يمكن تصور مدى الدور الذي يضطلع به هذا الأساس في رسم منظومة الوجود ومبادئ النظرة إلى الكون وتعريف منطلق ومقصد مجئ وذهاب الكائنات، و ما الآثار والتبعات التي يتركها على الأعمال والتعاملات و دوره في الحياة. إن عموم المراكز العلمية الشرقية وتبعا للعلم الجديد و العصري، أخذت تنتهج هذا المجال العلمي البحت وترى أنها مرتبطة به في جزء وكل هذه العلوم.

إن «دعاء الندبة» إذ يشير إلى فصل حضور و حياة النبي الأكرم(ص) و دورة فاعلية الشريعة المحمّدية، يصفه بانه صفوة المصطفين من بين جميع الأنبياء و الإصفياء الإلهيين. وأفضل جميع المنتجبين و أكرم المعتمدين ويذكرّ بتقدمه في الخلقة النورية.

وَ صَفْوَةَ مَنِ اصْطَفَيْتَهُ؛

وَ اَفْضَلَ مَنِ اجْتَبَيْتَهُ؛

وَ اَكْرَمَ مَنِ اعْتَمَدْتَهُ؛

قَدَّمْتَهُ عَلى اَنْبيائِک؛

وَ بَعَثْتَهُ اِلَى الثَّقَلَيْنِ مِنْ عِبادِکَ؛

وَ اَوْطَأَتَهُ مَشارِقَکَ وَمَغارِبَکَ؛
وَ سَخَّرْتَ لَهُ الْبُراقَ؛
وَ عَرَجْتَ (به) بِرُوْحِهِ اِلی سَمائِکَ؛
وَ اَوْدَعْتَهُ عِلْمَ ما کانَ وَما یَکُونُ اِلَی انْقِضاءِ خَلْقِکَ، ثُمَّ نَصَرْتَهُ بِالرُّعْبِ، وَحَفَفْتَهُ بِجَبْرَئیلَ وَمیکائیلَ وَالْمُسَوِّمینَ مِنْ مَلائِکَتِکَ وَوَعَدْتَهُ؛
اَنْ تُظْهِرَ دینَهُ عَلَی الدّینِ کُلِّهِ وَلَوْ کَرِهَ الْمُشْرِکُونَ؛
وَ ذلِکَ بَعْدَ اَنْ بَوَّأْتَهُ مَبَوَّأَ صِدْقٍ مِنْ اَهْلِهِ، وَجَعَلْتَ لَهُ وَ لَهُمْ اَوَّلَ بَیْتٍ وُضِعَ لِلنّاسِ لَلَّذی بِبَکَّةَ مُبارَکاً وَهُدیً لِلْعالَمینَ، فیهِ آیاتٌ بَیِّناتٌ مَقامُ اِبْراهیمَ وَمَنْ دَخَلَهُ کانَ آمِناً، وَ قُلْتَ:
اِنَّما یُریدُ اللهُ لِیُذْهِبَ عَنْکُمُ الرِّجْسَ اَهْلَ الْبَیْتِ وَیُطَهِّرَکُمْ تَطْهیراً»[1]
ثُمَّ جَعَلْتَ اَجْرَ محمّد صَلَواتُکَ عَلَیْهِ وَآلِهِ مَوَدَّتَهُمْ فی کِتابِکَ فَقُلْتَ:
قُلْ لااَسْاَلُکُمْ عَلَیْهِ اَجْراً اِلاَّ الْمَوَدَّةَ فِی الْقُرْبی.

١. آية التطهير، سورة الأحزاب (٣٣)، الآية ٣٣.

الفصل السابع: نبی الرحمة

و عندما يصل «دعاء الندبة» في معرض توضيحه وتبيانه للخارطة الإلهية العامة و تقديم المنعطفات التاريخية المهمة، إلى سلسلة أهل بيت الرسالة و الإمامة للنبي الأكرم محمّدبن عبدالله(ص)، يزيح الستار عن المسار التاريخي و صيرورة أبناء آدم و سلالة الأنبياء والرسل و يبين «تقدم» الخلقة الروحية والنورية لرسول الله(ص) وأهل بيته المكرمين.

التقدم فی الخلق

نقل عن رسول الله(ص) في هذا الخصوص:

«فلما أراد الله تعالى أن ينشئ خلقه فتق نوري فخلق منه العرش فالعرش من نوري، ونوري من نور الله، ونوري أفضل من العرش، ثم فتق نور أخي علي فخلق منه الملائكة، فالملائكة من نور علي، ونور علي من نورالله، وعلي أفضل من الملائكة، ثم فتق نور ابنتي فخلق منه السماوات والأرض فالسماوات والأرض من نور إبنتي فاطمة، ونور إبنتي فاطمة من نور الله، و إبنتي فاطمة أفضل من السماوات والأرض، ثم فتق نور ولدي الحسن فخلق منه الشمس والقمر، فالشمس و

القمر من نور ولدي الحسن، ونور الحسن من نورالله، والحسن أفضل من الشمس و القمر، ثم فتق نور ولدي الحسين فخلق منه الجنة و الحور العين، فالجنة و الحور العين من نور ولدي الحسين، ونور ولدي الحسين من نورالله، و ولدي الحسين أفضل من الجنة والحور العين.

فعند ذلك اظلمّت المشارق والمغارب، فضجّت الملائكة ونادت: إلهنا وسيّدنا بحقّ الأشباح التي خلقتها إلاّ ما فرّجت عنّا هذه الظلمة، فعند ذلك تكلّم الله بكلمة أُخرى فخلق منها روحاً، فاحتمل النور الروح فخلق منه الزهراء فاطمة، فأقامها أمام العرش، فأزهرت المشارق و المغارب، فلأجل ذلك سمّيت الزهراء.»[١]

و يذكرّ «دعاء الندبة» المؤمنين بالحالات التالية حول هذه الذرية الطاهرة وخلقهم:

١. أفضلية و أولوية وأشرفية النبي الأكرم(ص) في سلسلة الخلائق ومراتب الخلق النوري لكل الكائنات و الظواهر؛

٢. أفضلية وأولوية وأشرفية النبي الأكرم(ص) من حيث كمالات الوجود مقارنة بسائر الأنبياء الإلهيين العظام؛

٣. طهارة وجدارة ذرية النبي الأكرم(ص) لانهم ديمومة ومكمل رسالة ذلك النبي العظيم، والإمامة على الناس ومحققو الخارطة الإلهية العامة في الفصل الأخير من حياة البشرية على الأرض؛

٤. إتساع نطاق سيادة نبوتهم و ولايتهم على الثقلين (الجنّ والإنس)؛

٥. إتساع نطاق سيادتهم وجغرافيا نبوتهم في أرجاء الأرض (شرق العالم و مغاربه)؛

---

١. «تفسير البرهان»، ج ١، صص ٣٩٢ و ٣٩٣.

٦. مجال وقوة واذن السير والسفر في جميع العوالم الملكية والملكوتية؛

٧. الوعد بغلبة الدين الكوني على كافة الأمم والأديان (في آخر الزمان).

ولميبين أي عمل من بين الأدعية، إلى هذه الدرجة وإجمالا، سير و سفر الانسان في الأرض وبدايته ونهايته ومرشده والأحداث التي مرت على الأجيال الماضية.

إن تقديم سبيلالله و بابالله لسلوك الطريق إلى الله، بعد بعثة خاتم الأنبياء محمّد(ص)، يشكل أعلى فصل من دورة حياة الرسول الأكرم(ص). وقد اعتبرالله تعالى في «واقعة الغدير»، هذا الفصل، بانه القسم الأخير والمكمل للدين، بل اعتبر عدم إبلاغه بمثابة عدم إكتمال رسالة النبي(ص). لسبب أن ذلك اليوم يسمى عيدالله الأكبر، لانه ومع اختتام سلسلة إرسال الأنبياء وإنزال الكتب، لاإمكانية للسير إلىالله وتجربة الفلاح من دون اعلان ولاية وإمامة سلسلة أوصياء النبي الأكرم(ص)، وأن البشرية تصاب بالضلال في برهوت الترديد و تهلك.

و يجب النظر إلى موضوع إكمالالدين وإعلان ولاية و إمامة وصي رسول الله(ص) نسبة إلى الموضوعات التالية:

- مجموعة الخارطة الإلهية العامة وضرورة تحققها لتجربة أسمى مراتب التقرب إلى الله ورحمة الله الواسعة؛
- الملك الإلهي العظيم في آخر الزمان وبعد الظهور الأكبر لإمام العصر والزمان(عج). في حين أن مجمل قوى ابليس اللعين وجنوده، تستهلك للحد من هذه الامور المهمة.

«الْيَوْمَ يَئِسَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْ دِينِكُمْ فَلَا تَخْشَوْهُمْ وَاخْشَوْنِ الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الْإِسْلَامَ دِينًا.»[1]

---

١. سورة المائدة (٥)، الآية ٣.

وقد طرح علماء الشيعة والسنة حول زمان نزول هذا الجزء من الآية، قولان فحسب: نزولها في حجة الوداع، في يوم عرفة ونزولها في «غدير خم.»

و قال أبوسعيد الخدري و جابر الأنصاري:

أن رسول الله(ص) لما نزلت عليه هذه الآية، قال «اللهأكبر على إكمال الدين و إتمام النعمة، و رضا الرب برسالتى و ولاية علىّبن أبىطالب من بعدى.»[١]

وقد بلغ «دعاء الندبة» أرفع وأهم المواقع في وصف إعلان ولاية وإمامة عليّبن أبيطالب(ع) ويشير إلى النبي الأكرم(ص):

«فَقالَ وَ الْمَلأُ اَمامَهُ: مَنْ كُنْتُ مَوْلاهُ فَعَلِيٌّ مَوْلاهُ اَللّـهُمَّ وال مَنْ والاهُ وَ عادِ مَنْ عاداهُ وَ انْصُرْ مَنْ نَصَرَهُ وَاخْذُلْ مَنْ خَذَلَهُ، وَقالَ: مَنْ كُنْتُ اَنَا نَبِيَّهُ فَعَلِيٌّ اَميرُهُ، وَ قالَ اَنَا وَ عَلِيٌّ مِنْ شَجَرَة واحِدَة وَ سائِرُالنَّاسِ مِنْ شَجَر شَتّى، وَ اَحَلَّهُ مَحَلَّ هارُونَ مِنْ مُوسى، فَقال لَهُ اَنْتَ مِنّى بِمَنْزِلَة هارُونَ مِنْ مُوسى الّا اَنَّهُ لا نَبِيَّ بَعْدى، وَ زَوَّجَهُ ابْنَتَهُ سَيِّدَةَ نِساءِ الْعالَمينَ، وَاَحَلَّ لَهُ مِنْ مَسْجِدِهِ ما حَلَّ لَهُ، وَ سَدَّ الاَبْوابَ اِلاّ بابَهُ، ثُمَّ اَوْدَعَهُ عِلْمَهُ وَ حِكْمَتَهُ فَقالَ: اَنَا مَدينَةُ الْعِلْمِ وَ عَلِيٌّ بابُها، فَمَنْ اَرادَ الْمَدينَةَ وَ الْحِكْمَةَ فَلْيَاْتِها مِنْ بابِها ....»[٢]

وبعد إعلانه ولاية وإمامة علي أميرالمؤمنين(ع)، يدعو النبي الأكرم(ص) بجملة، الله تعالى أن يوالي من يوالي الإمام وأن يعادي من يعاديه.

و لاشك في استجابة دعاء الرسول الأكرم(ص) عندالله، كما رُفع ظرف الزمان من الدعاء، ليكون الدعاء على امتداد الزمان، يغطي جميع موالي ومعادي أميرالمؤمنين علي(ع) وأوصيائه من بعده.

---

١. «الغدير»، العلامة الأميني، ج ١، ص ٢٣٠.
٢. «مفاتيح الجنان»، دعاء الندبة.

ومن ثم، يتحدث رسول الله(ص) عن ثلاث وشائج مذهلة روحية، (الأصل في الخلقة) وحقوقية واعتبارية تجاه الإمام علي(ع) ليصف بذلك أوجه ترابط وتواصل الإمام(ع) مع رسول الله(ص). و يقول:

«اَنَا وَعَلِيٌّ مِنْ شَجَرَة واحِدَة وَسائِرُالنَّاسِ مِنْ شَجَر شَتّى.»

و يميط النبي الأكرم(ص) بداية عن نسبة خاصة أغفلها الاخرون. وحسب بعض العلماء، فان شجرة بنيأمية الملعونة، تقف على طرف نقيض من شجرة المحمّد(ص) الطيبة والمباركة.

و نقل السيوطي و هو من علماء أهل السنة، في «الدر المنثور» أن رسول الله(ص) رأى في الرؤيا، أن بنيأمية يقفزون كالقردة الواحد تلو الآخر على منبره، فتألم النبي(ص) ولم يشاهده بعد ذلك، أحد وهو بهيج، فانزل الله تعالى هذه الآيات من «سورة الإسراء، الآية ٦٠»:

«وَ إِذْ قُلْنَا لَکَ إِنَّ رَبَّکَ أَحَاطَ بِالنَّاسِ وَمَا جَعَلْنَا الرُّؤْيَا التى أَرَيْنَاکَ إلا فِتْنَةً لِلنَّاسِ وَ الشَّجَرَةَ الْمَلْعُونَةَ فِى الْقُرْآنِ وَ نُخَوِّفُهُمْ فَمَا يَزِيدُهُمْ إِلا طُغْيَانًا كَبِيراً.»[1]

وقد نقل «تفسير البرهان» نفس الحديث عن أبوهريرة، فيما يقول المرحوم الطبرسي في «مجمع البيان»:

إن مهملبن سعد روى عن الإمام الصادق(ع) أن الشجرة الملعونة في القرآن، هم بنيأمية وذريتهم. إن النبي الأكرم(ص) يذكرّ الناس في أهم خطبة له أي «الغدير» و في أهم يوم، أي يوم إعلان الولاية والإمامة والوصاية، الناس باكبر انشقاق يحصل في المستقبل، من بعده، ويُعرّف من خلال الشجرة الملعونة، تداوم

١. سورة الإسراء، الآية ٦٠.

وتشعب التيار الملعون و المطرود، ومن أجل رفع جميع الشبهات، يعتبر من الأصل والأساس، أن تلك الشجرة منفصلة عن شجرة المحمّد(ص) الطيبة.

إن شجرة المحمّد(ص) هي شجرة ابراهيم وآل ابراهيم(ع) الطيبة، و شجرة الأنبياء والرسل والأصفياء الإلهيين الطيبة. وقد اعتبر المعصومون(عليهم السلام) في توضيح «الآية ٦٠ من سورة الإسراء» أن القصد من الشجرة الملعونة، هم بني أمية.[١]

ومن ثم أشار النبي الأكرم(ص) إلى النسبة بين موسى وهارون ويتحدث عن منزلة علي(ع) في مقام الوزير والمشير والمشار كهارون، و يشير مجددا إلى كون الإمام علي(ع) في الشجرة الطيبة لآل‌محمّد(ص).

إن كلا من التوصيفات التي ترد لاحقا في «دعاء الندبة»، تكشف عن الشؤون متعددة الأوجه للإمام علي(ع) وتتحدث عن النسب الذي لا ينفصم بين علي(ع) و رسول الرحمة.

علي(ع)، ولي الله

وقد ثبت النبي الأكرم(ص) والإمام الصادق(ع) في سياق الخطبة والدعاء، أساس الإحتجاج مع منكري ومبغضي مقام إمامة وولاية عليّ‌بن أبي‌طالب(ع)، وأوردا وثائق وأدلة دامغة، تتكشف من خلالها طبيعة المتشدقين والمدعين، و لاتبقي شك للعاقل والحكيم، بان أوصياء النبي الأكرم(ص)، هم بالضرورة ممن يحظون بنسبة وشأن طبيعي واعتباري ويشتركون في الخلقة الروحية والنورية و يتمتعون باسمى المواصفات لإحراز هذا المقام المهم والمصيري، وان المتشدقين الذين

١. «تفسير العياشي»، ج ٢، ص ٣٢١؛ «نور الثقلين»، ج ٣، ص ١٨٠.

يفتقدون إلى هذه الميزات، هم غاصبو حق محمّد وآلمحمّد(ص) وبالتالي مُضلو جمهور المسلمين في أول قرن من بعثة النبي الأكرم(ص) و ولادة الاسلام الحبيب.

إن اعلان هذه الشروط لجلب منصب الخلافة والإمامة ونبذ استراتيجية «مجلس السقيفة» هو لحذف الشروط اللازمة ووضع الاعتبارات المزورة للعصر الجاهلي:

١. الإشارة إلى تنصيب الإمام على(ع) فى يوم غدير خم

لقد أوردت الروايات أرقاما مختلفة عن عدد الشهود على تنصيب الإمام علي(ع). ويروي العياشي في ذيل «الآية ٦٧ من سورة المائدة» عن الإمام الصادق(ع) ما مضمونه: إني أتعجب أن شخصا يأتي بشاهدين فينال حقه، لكن حق عليّبن أبيطالب(ع) أهدر مع عشرة الاف شاهد.[١]

و ذكر ابن شهر اشوب في رواية عن الإمام الصادق(ع) بان شهود «الغدير» كانوا عشرة الاف شخص.[٢] وعلى أي حال فان الأرقام التي تحدثت عن عدد الأشخاص الذين حضروا في الغدير، تراوحت ١٣٠٠ شخص إلى ١٢٠ الف شخص.

ولايوجد خلاف في مصادر الشيعة والسنة حول تاريخ الغدير وموضوع إعلان ولاية الإمام علي(ع) وبيعة حشد من الحضور مع الإمام عليه السلام.

٢. حديث المنزلة

إن النبي الأكرم(ص) و لإبراز برهان أفضلية علي(ع) على سائر الصحابة وتأييدا للإمام و خلافته، احتج ب«حديث المنزلة» و يقول صلى الله عليه وآله وسلم:

---

١. «سبل الهدى والرشاد»، صالحي الشامي، محمّدبن يوسف، بحث، عادل أحمد عبدالموجود، الطبعة الاولى، بيروت، دار الكتب العلمية، ١٤١٤ ه.ق.
٢. «الخصال»، الصدوق، محمّدبن علي، قم، إصدارات رابطة المدرسين، ١٤٠٣ ه.ق.

«يا على أنت منى بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبى بعدى.»

إن حديث المنزلة هو أحد أقوى وأتقن الأدلة على إمامة و ولاية علي(ع). و يحظى هذا الحديث بقبول علماء الشيعة والسنة.

وقد اعتبر النبي الأكرم(ص) في مناسبات مختلفة، علي(ع) منه بمنزلة ومقام هارون من موسى(ع) وقال: «أنت مني بمنزلة هارون من موسى إلا أنه لا نبي بعدي.»[١]

«إن قطعية صدوره هو محل اقرار كبار علماء المسلمين وثقاة المحدثين الشيعة والسنة ويدل لدى الشيعة على تقدم وأفضلية على على سائر الصحابة.»[٢]

و قد نقل هذا الحديث عن النبي الأكرم(ص) بتعابير وألفاظ مختلفة وفي أزمنة و أماكن مختلفة، بما في ذلك يوم «العهد الأول للتآخي» (قبل الهجرة الى المدينة) ويوم «العهد الثاني للتآخي» (خمسة أشهر بعد الهجرة إلى المدينة)، في منزل أم سلمة، أثناء تعيين قيم لإبنة خمرة، والأكثر شهرة في «غزة تبوك.»

وحسب الخطيب البغدادي[٣]، فقد أقر الوليد بن عبد الملك الأموي بأصل هذا الحديث واستبدل لفظة هارون بلفظة قارون.

و قد استند المأمون العباسي إلى هذا الحديث أثناء الإحتجاج مع الفقهاء.[٤] وحسب الخطيب البغدادي، فقد اعتبر عمر واستنادا منه إلى حديث المنزلة، الشخص الذي سبّ علي(ع) بانه منافق.

---

١. كتاب المناقب، «سنن الترمذي» ح ٣٧٣٤، ٣٧٣١؛ «مسند أحمدبن حنبل»، ١/١٧٩ و ٣/٣٣٨؛ «مناقب، ابن حنبل»، «حلية الأولياء» حافظ ابونعيم الاصفهاني، ٧/١٩٥.
٢. «الإستيعاب» نقلا عن السيد محسن اميني في «أعيان الشيعة»، ١/٣٧١.
٣. ويكي، الموسوعة الحوزوية، نقلا عن الخطيب البغدادي، «تاريخ البغدادي»، ج ٨، ص ٢٦٢.
٤. ويكي، الموسوعة الحوزوية، نقلا عن ابن عبد ربه، «العقد الفريد»، ج ٥، ص ٣٥٧.

٣. إغلاق أبواب جميع المنازل، سوى منزل على(ع)

وأحد المستندات الاخرى لمقام ومنزلة الإمام علي(ع) عند رسول الله(ص) هو إغلاق أبواب جميع المنازل التي كانت تفتح على مسجد النبي(ص) بامر من الله تعالى، ماعدا باب منزل علي(ع).

وعن «الآية ٣٦ من سورة النور»، إذ يقول الله تعالى:

«فِى بُيُوتٍ أَذِنَ اللّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالْآصَالِ.»

قال النبي الأكرم، إن المراد هو بيوت الأنبياء. وسأل ابوبكر، النبي(ص):

يا رسول الله، هل أن بيت علي وفاطمة، هو من هذه البيوت، فقال رسول الله(ص)، نعم، بل أن بيت علي وفاطمة هو أفضل من بيوت الأنبياء.[١]

وفي تلك الفترة، كانت أبواب بيوت بعض الصحابة تفتح على المسجد، فامر الرسول الأعظم(ص)، باغلاق جميع هذه الأبواب ما عدا باب بيت علي وفاطمة. واحتج بعض الأصحاب وانزعج. وعندما رأى النبي(ص) احتجاج هؤلاء قال ما مضمونه أنه لم يغلق بابا حسب رأيه ولميفتح أخرى، بل أني أمرت من الله تعالى.[٢]

إن صدور الإذن بفتح باب بيت الإمام علي(ع) على مسجد النبي(ص)، كان إعلان الفضيلة الذاتية لهذه الذوات المقدسة، واذا كان الصحابة يفهمون هذا المعنى الذي أشار اليه رسول الله(ص) مرارا، لما كانوا يدخلون باب القياس والمقارنة المعمول بها حول خلق الله والمبتلين بالأمور الاعتبارية الدنيوية، عندما كان الحديث يدور حول الإمام علي(ع).

---

١. «تفسير الدر المنثور»، ج ٥، ص ٥٠
٢. «كتاب مسند احمد»، ج ٤، ص ٣٦٩.

٤. تزويج فاطمة الزهراء(س)

لقد كان الصحابة والمسلمون، على علم بمقام ومكانة فاطمة الزهراء(س). وجاء في مصادر أهل السنة أن النبي الأكرم(ص) كان يقول لخاطبي فاطمة الزهراء(س) إنه ينتظر إذن وتقدير الله تعالى، وأن هذا الأمر المهم سيقع باذن الله. وهذه الواقعة تعلن بحد ذاتها، أفضلية وأشرفية علي(ع) على سائر الصحابة وحجة واضحة للوقائع المستقبلية.

و جاء في «سنن النسائي» نقلا عن بريدة: أن أبوبكر وعمر طلبا الزواج من فاطمة(س)، لكن النبي الأكرم(ص) قال إنها صغيرة، ثم تقدم علي(ع) للزواج منها، فزوجها رسولالله منه.

وجاء في «الطبقات الكبرى» نقلا عن عليبن أحمر يشكري: إن أبوبكر طلب الزواج من فاطمة لدى رسول الله(ص)، لكنه صلى الله عليه وآله وسلم قال: يا أبوبكر، إني أنتظر التقدير الإلهي.

ونقل ذلك ابوبكر، لعمر، فقال له عمر: يا ابوبكر، لقد رفضك. ثم قال ابوبكر لعمر: أطلب أنت يد فاطمة من رسول الله(ص)! فطلب يدها. فقال له رسول الله(ص) الشئ نفسه الذي قاله لابيبكر: «إني أنتظر التقدير الإلهي.»[١]

كما ينقل «الطبقات الكبرى» عن عطا:

> لقد طلب على(ع) يد فاطمة(س)، فقال رسول الله(ص) لفاطمة(س): إن عليا يذكرك، فسكتت فاطمة(س). وعندها زوجها رسول الله(ص) من على(ع).[٢]

---

١. مركز الدراسات والرد على الشبهات، زواج فاطمة الزهراء(س)، انديشة قم، نقلا عن «الطبقات الكبرى»، ٨/١٩؛ «أنساب الأشراف»، ٢/٣٠.
٢. المصدر السابق، نقلا عن «الطبقات الكبرى»، ٨/٢٠؛ «انساب الاشراف»، ٢/٣٠.

وقال النبي الأكرم(ص): إن الله أمرني بتزويج فاطمة من علي.[١]

ومن ثم توجه رسول الله(ص) إلى فاطمة فقال أني لم أقصر لاني زوجتك من أفضل ذريتي.[٢]

و جاء في رواية أخرى أن النبي الأكرم(ص) قال إن زواج فاطمة نزل من السماء.[٣]

إن هذا الزواج السماوي حدث بعد سنة واحدة من هجرة رسول الله(ص) إلى المدينة وفي تلك السنة كانت السيدة فاطمة الزهراء(س) تبلغ من العمر تسع سنوات.[٤] وتؤكد عامة المصادر الشيعية على أن هذا الحدث المقدس كان سماويا، مثلما ذكر في مصادر أهل السنة.

إن هذا الزواج ونزول الإذن الإلهي لزواج ابنة رسول الله(ص)، يعد وثيقة دامغة على فضيلة ومكانة الإمام علي(ع) لدى الله تعالى ونبيه الأكرم.

إن جملة الكمالات الذاتية والأوصاف الثابتة في خُلق وسيرة الإمام علي(ع)، جعلته يكون لائقا وجديرا بتلقي مجمل ودائع وأمانات النبي الأكرم(ص) وأن يكون وارثه، بحيث أن جملة مواريث وودائع النبي الأكرم(ص) بما فيها العلم والحكمة، أودعت للإمام عليه السلام. ماعدا الخلافة الظاهرية التي سلكت مسارا اخر وأدت إلى ظهور أكبر انشقاق في الأمة الإسلامية وكوارث سياسية واجتماعية وثقافية واقتصادية في الأبعاد العالمية. الواقعة التي ستستمر تبعاتها حتى الظهور الأكبر لإمام العصر(عج). وكان تغير مسار «خلافة المسلمين» واقعة سياسية في الظاهر،

---

١. المصدر السابق، نقلا عن «المعجم الكبير»، ١٠/١٥٦/١٠٣٠٥؛ «ذخائر العقبى»، ٧٠.
٢. المصدر السابق، نقلا عن «الطبقات الكبرى»، ٨/٢٤؛ «كنز العمال» ١١/٦٠٦/٣٢٩٣٠
٣. المصدر السابق، نقلا عن «الكافي»، ٥/١٥٦/١٠٣٠٥؛ «من لايحضره الفقيه»، ٣/٣٩٣/٤٣٨٢.
٤. «أصول الكافي»، ٨/٣٤٠/٥٣٦.

بيد أن هذا التغيير وقبل أن يظهر آثاره في المعاملات السياسية و تنظيم العلاقات المدنية لمجتمع المسلمين، أفضى إلى تغيير في المبادئ والأسس النظرية و الإنحراف عن هذين المبدأين المهمين.

إن الإنشقاق في المبادئ و الأسس أسفر عن تغير الماهية و تحول الإنطباعات العامة والنظرية، ويؤدى بالضرورة إلى تغير تغير وتبدل جميع الشؤون الثقافية و الحضارية.

وعلى النقيض من تصور أصحاب النظرة الظاهرية، فان مجمل العلاقات والمعاملات الحضارية والثقافية، تبنى على المبادئ والأسس النظرية، بحيث إن تغيرّ هذين المبدأين، لكن جميع الأوجه الحضارية و ظاهر العلاقات الدينية وحتى صورة العبادات بقيت محفوظة، فان التوجه العام والحصيلة النهائية، تتمثل في التحرك نحو الوجهة والمأوى الذي يقف على طرف نقيض من المبادئ والأسس الأولية والمصرح بها في الكتاب و القول الوحياني لرسول الله(ص).

إن ما تكفل به «دعاء الندبة»، هو رسم تاريخ الثقافة الحقيقية في مقابل «التاريخ المزور.» إن السبيل الوحيد لإكتشاف الحقيقة والوصول إلى الحقائق السامية التي تؤدي إلى تغير المسار وكيفية الذهاب وبالتالي الوصول إلى الوجهة الحقيقة المنشودة، هو مراجعة تاريخ ثقافة المسلمين.

إن تاريخ ثقافة المسلمين، هو تاريخ ثقافة المستضعفين وطائفة صبغةالله، والذي بدأ من آدم صفوة الله(ع) و يمر بمنعطفات مختلفة، إلى أن يصل إلى النقطة الختامية أي الظهور الأكبر لآخر وصي رسولالله خاتم الأنبياء، أي المهدي الموعود، أرواحنا له الفداء.

و كل هذا يحدث بينما يتم التركيز البحت على الجانب السياسي للوقائع خلال الحديث عن أحداث صدر الاسلام وذلك ناجم عن الغفلة عن تغير المبادئ والأسس والنتائج المترتبة عليها. ويجب درك أن النزاع والمشاجرة، هما بشأن جميع المبادئ التي كان يؤكد عليها النبي الأكرم(ص)، وكلف شخصا فذا لحمايتها في اطار الأمانة والوديعة وكان يؤكد على حجية قوله وفعله على مدى أكثر من ٢٣ عاما من البعثة إلى الرحيل.

إن التغيير في مبادئ الاسلام وأسسه كان ينطوي بحد ذاته على تغير في المصادر والرجوع إلى الحجج غير الإلهيين، بحيث أن التغير في المصادر النظرية، يتبعه بالضرورة تغير في المبادئ والأسس. ويشير النبي الأكرم(ص) في حديث «الثقلين» الذي يعتبر أشهر أحاديث تراث الاسلام، إلى جانب القرآن، إلى أصالة الثقل الثاني أي «العترة» ويعتبر ضروريا حمايتها حتى وقت القيامة. وفي الحقيقة، يؤكد على أصالة المصدر النظري الديني أي القرآن والعترة واللذان يمكن الاتكاء عليهما للسير في مضمار التاريخ، وعدم الإنفصال عنهما والوصول إلى النتيجة المرجوة.

ويعتبر الشيعة هذا الحديث الصحيح والمتواتر بانه واحد من أدلة إمامة ووصاية أميرالمؤمنين علي(ع) المباشرة، ونقلوه باثنين وثمانين طريقا عن رسول الله(ص).[١]

ويعتمد أهل السنة هذا الحديث أيضا ويعتبروه معتبرا ونقلوه بعشرات الطرق ومن عشرين ونيف من صحابة النبي(ص).

وأسماء الصحابة الذين رووه، نقلا عن السخاوي هم:

١. «موسوعة التشيع»، مادة حديث الثقلين/ «أعيان الشيعة»، ج ١، ص ٣٧٠.

زيدبن أرقم، أبوسعيد الخداري، جابر، حذيفةبن السيد، خزيمةبن ثابت، سهلبن سعد، عبدالرحمنبن عوف، عبدالله بن عباس، عديبن حاتم، عليّبن أبيطالب، أبوذر، أبورافع، أبوهريرة و ... .[١]

وقد صدر هذا الحديث الشريف عن النبي الأكرم(ص) في أزمة وأمكنة مختلفة. والأزمنة التي نقل فيها هذا الحديث هي: غدير خم في طريق العودة من «حجة الوداع»، وفي «أيام الحج» و «يوم عرفة» وأثناء العودة من «الطائف» و بعد فتح مكة و ... .

و جاء في «صحيح مسلم» الذي يعد واحدا من أشهر مصادر أهل السنة:

قال: قام رَسُول اللَّهِ(ص) يوماً فينا خطيباً بماء يدعى خماً بين مكة والمدينة، فحمد اللَّه وأثنى عليه، و وعظ وذكر ثم قال: (أما بعد، ألا أيها الناس فإنما أنا بشر يوشك أن يأتي رسول ربي فأجيب، وأنا تارك فيكم الثقلين: أولهما كتاب الله، فيه الهدى والنور، فخذوا بكتاب اللَّه واستمسكوا به) فحث على كتاب اللَّه ورغب فيه. ثم قال:

«وأهل بيتى، أذكركم اللّه فى أهل بيتى، أذكركم اللّه فى أهل بيتى، أذكركم اللّه فى أهل بيتى.»[٢]

وكان رسول الله(ص) يعرف جيدا، إنه إن بقيت المصادر النظرية الحقيقة، فان المبادئ والأسس يمكن استحصالها منها مرارا وتكرارا، لكن التغير في هذه المصادر، يؤدي إلى التغير في الأصول والفروع، مثلما أنه منذ الأيام الأولى التي تلت رحيل رسول الله(ص)، خرج أحد المصادر المؤكد عليها، من تناول المسلمين

١. مركز الدراسات والرد على الشبهات، معهد الفكر بقم، سيّدمحمّدحسن جواهري، نقلا عن «خلاصة العقبات»، سيّدعليحسين ميلاني، ج ١، صص ٩٣ و ٩٦، منشورات قم للدراسات الاسلامية.
٢. «صحيح مسلم» ج ٤، ح ٢٤٠٨؛ المصدر السابق، سيّدمحمّدحسن جواهري، معهد الفكر بقم.

ومُنع الرجوع إليه. والمصدر الثاني أي أهل البيت، اضطر لملازمة البيت، وتحول مرجع الناس لحل ومعالجة الموضوعات العقائدية والأخلاقية وبالتالي تنظيم العلاقات المدنية، إلى مصدر غير أصيل. وكان واضحا أن هذا الوضع في السير التكويني، كان سيؤدي إلى أكثر الظروف الثقافية والحضارية للمسلمين، أسفا، بحيث أن رسول الله(ص) كان يتوقعه.

إن «المصادر النظرية» هي مراجع تحوي في الحقيقة، الأصول والفروع النظرية لمدرسة ومشرب ديني وفلسفي ما وتحافظ على جغرافيا تلك الانطباعات. وتضم المصادر مؤشرات و معايير المدرسة ومؤسسيها الأوائل وتحميها، وإن حدث تغيير أو تدخل و تصرف في تلك المصادر، أو أن يتم التشكيك في حجيتها، فان باب العدول عن المبادئ والأسس سيفتح وتتغير بالتالي حجة العمل.

إن التغيير في حجة العمل وحجية المصادر والذي يبدأ من إيجاد الشبهات، يفسح المجال للشهوة العملية والتمرد على جميع الحجج والأصول والمبادئ والتعاليم، لدرجة أن تلك المدرسة تسقط عن حيز الأصالة وتخرج عن مسارها، ولا يبقى عنها سوى إسم بلا مسمى. إن جل همة واهتمام أعداء الاسلام الحقودين، تركز منذ الأيام الأولى على إيجاد الشبهات في مقابلة حقانية وأصالة هذا الدين الإلهي وحجية الحج والقدوات وإحباط أوامرهم ونواهيهم، لكي لايبقى على مر الزمان والأيام، شيئا عن الاسلام و المسلمين.

إن تصريح النبي الأكرم(ص) من أن الإمام علي(ع) يمثل «حبل الله المتين والصراط المستقيم»، يكشف للجميع أن الإمام علي(ع) وبعد النبي الأكرم(ص) يعد في طريق السير إلى الله، مصداقا تاما لسبيل الله و باب الله.

و جدير ذكره أن هذه التوصيفات، ليست مجموعة من المجاملات و الإشادات الشاعرية الذوقية، بل كل منها، تبين شأنا و يظهر بعدا من الوجه الحقيقي لأمير المؤمنين(ع) باعتباره أحد الحجج و المصدر النظري الاسلامي.

أجمل توصف لحجة الله

إن رسول الله(ص) ومع اعتبار علي(ع) بانه الحجة الإلهية، والمصدر النظري بجانب ثقل «القرآن الكريم»، ليقول أنه عليه السلام، الأمين الكفوء لعلمه وحكمته وقال: «اَنَا مَدينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بابُها.»

ويقول الفردوسي:

أنا مدينة العلم وعلى بابها

صحيح إن هذا الكلام هو قول النبى

«فَقالَ: اَنَا مَدينَةُ الْعِلْمِ وَعَلِيٌّ بابُها، فَمَنْ اَرادَ الْمَدينَةَ وَالْحِكْمَةَ فَلْيَاْتِها مِنْ بابِها، ثُمَّ قالَ: اَنْتَ اَخى وَوَصِيّى وَوارِثى، لَحْمُکَ مِنْ لَحْمى وَدَمُکَ مِنْ دَمى وَسِلْمُکَ سِلْمى وَحَرْبُکَ حَرْبى وَالإيمانُ مُخالِطٌ لَحْمَکَ وَدَمَکَ کَما خالَطَ لَحْمى وَدَمى، وَاَنْتَ غَداً عَلَى الْحَوْضِ خَليفَتى وَاَنْتَ تَقْضى دَيْنى وَتُنْجِزُ عِداتى وَشيعَتُکَ عَلى مَنابِرَ مِنْ نُور مُبْيَضَّةً وُجُوهُهُمْ حَوْلى فِى الْجَنَّةِ وَهُمْ جيرانى ... .»

«وَ لَوْلا اَنْتَ يا عَلِيُّ لَمْ يُعْرَفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدى، وَكانَ بَعْدَهُ هُدىً مِنَ الضَّلالِ وَنُوراً مِنَ الْعَمى، وَحَبْلَ اللهِ الْمَتينَ وَصِراطَهُ الْمُسْتَقيمَ، لا يُسْبَقُ بِقَرابَةٍ فى رَحِمٍ وَلا بِسابِقَةٍ فى دينٍ، وَلا يُلْحَقُ فى مَنْقَبَةٍ مِنْ مَناقِبِهِ، يَحْذُو حَذْوَ الرَّسُولِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِما وَ آلِهِما ...»

الصراط المستقيم

وفي «دعاء الندبة» الذي يستند إلى خطبة و واقعة «عيدغدير خم» الشريفة، يتوجه النبي الأكرم(ص) إلى إمام المتقين، عليّبن أبيطالب(ع) و يقول:

«وَ لَوْلا اَنْتَ يا عَلِيُّ لَمْيُعْرَفِ الْمُؤْمِنُونَ بَعْدى، وَ كانَ بَعْدَهُ هُدىً مِنَ الضَّلالِ وَ نُوراً مِنَ الْعَمى، وَ حَبْلَ اللهِ الْمَتينَ وَ صِراطَهُ الْمُسْتَقيمَ.»

إن تقديم الإمام علي(ع) بوصفه الصراط الإلهي المستقيم، بحيث يقول:

«أنا الصراط المستقيم والعروة الوثقى التى لاانفصام لهما.»[1]

يعود إلى مقام «ولايته» و «قربه» إلى الله تعالى، كما أن انتخابه عليهالسلام كوصي وخلفية للنبي الأكرم(ص) يعود إلى مقام ولايته.

إن أفضلية وأشرفية وأولوية وتقدم النبي الأكرم نسبة إلى كل الكائنات بمن فيهم جميع الأنبياء و الرسل، معطوف على مقام «قربه» صلّىالله عليه وآله إلى الله تعالى قبل أن يكون معطوفا على مقام نبوته ورسالته.

إن الوَلاية بمعنى المحبة والصداقة والعشق، كما أن الوِلاية تعنى الحكم و السلطنة. إن وَلا و الوَلاية والوِلاية و المولى و أمثالها مشتقة من المادة الأولية «ولي.» و المعنى الرئيسي لهذه الكلمة كما بينه راغب الاصفهاني في «مفردات القرآن» هو وضع الشئ بجوار الشئ الاخر، بحيث لايكون فاصل بينهما. أي أن هذين الشيئين يتصلان معا بحيث لا يكون شئ آخر بينهما.

إن هذه القرابة والتقارب، يحددان درجة الولاية.

---

۱. «بحارالأنوار»، ج ۸، ص ۷۰.

ولقد قبلنا النسبة بين القرابة والولاية (بمعنى نسبة التصرف وحق التصرف) في العلاقات الجارية بيننا ونتقيد بها. أريد أن أقول أن درك هذه النسبة هو فطري وذاتي في وجود الانسان.

وهل أنتبهتم إلى العلاقة والنسبة السائدة بين أبناء اسرة واحدة ونسبة تدخلهم وتصرفهم في شؤون الأسرة وممتلكاتها؟ ويعتبر أبناء الاسرة، أهل ذلك المنزل ومحرم البيت وصاحب مفتاح واذن التدخل والتصرف في الممتلكات والثروة العائلية، وحتى أنهم يرثون من الأب. وبعد الأب، الإبن الأكبر، يكون صاحب خاتم الأب، وإن الإرث من الأب هو أحلى وأطهر من حليب الأم لأطفالها.

إن سر كل هذا التمتع والمحرمية والصلاحية، يعود إلى مدى ونسبة تقرب الأبناء إلى الأب والأم. والان انتبهوا إلى نسبة تمتع ومحرمية وصلاحية أبناء العمومة وأبناء الخالة وأبناء العمات من هذا البيت والاسرة. إن أيا منهم لا يستطيع أن حل محل أبناء الاسرة وصلاحياتهم. و إن تنزلت هذه النسبة إلى مستوى الجيرة و ابن المدينة والوطن، تتراجع بنفس القدر نسبة التمتع و المحرمية و الصلاحية تجاه تلك الاسرة، إلى أن تفضي إلى العداء والضغينة و البغضاء.

إن «التقرب» يحدد نسبة المحرمية وبالتالي نسبة التمتع والصلاحية والذي هو الوِلاية و حق التصرف. والان نتساءل: إن كان أحدهم ينوي الذهاب الى بيت ولقاء اسرة ما، فمن هو أكثر الأشخاص أمانة وصدقا في الارشاد نحو ذلك البيت و الاسرة؟

أب الاسرة؟ إبن الاسرة؟ الجار؟ و ...

إن أفضل شخص للتوجيه والارشاد يجب أن يكون أقرب فرد. ومتى وأين شاهدتم إجراء قرعة أو إستفتاء، من أجل تشخيص نسبة محرمية شخص تجاه بيت واسرة ما؟ وكل انسان ساذج يسخر من هذه الطريقة.

و قد أشار النبي الأكرم(ص) في اعلام إمامة و ولاية أميرالمؤمنين(ع) إلى نسبة تقربه عليه السلام و قال:

«اَنْتَ اَخی وَوَصِیّی وَوارِثی، لَحْمُکَ مِنْ لَحْمی وَدَمُکَ مِنْ دَمی وَسِلْمُکَ سِلْمی وَحَرْبُکَ حَرْبی وَالإیمانُ مُخالِطٌ لَحْمَکَ وَ دَمَکَ کَما خالَطَ لَحْمی وَ دَمی، وَ اَنْتَ غَداً عَلَی الْحَوْضِ خَلیفَتی وَ اَنْتَ تَقْضی دَیْنی وَ تُنْجِزُ عِداتی ... .»

و بعبارة أخرى فان النبي الأكرم(ص) يعلن بصراحة:

يا علي أنت أنا و أنا أنت.

إن هذا المعنى يعرفه الإمام علي(ع) جيدا وليست ثمة حاجة لسماعه وتكراره. بل أن النبي الأكرم(ص) يبين للمسلمين، هذا المعنى في هذه العبارات متعددة الأوجه عسى أن يدركوا مقامه ومنزلته وأهل بيته! إن الإشارة المباشرة للنبي الأكرم(ص) ل «في القربى» هي اشارة الى نسبة القرابة وبالتالي نسبة ولاية وامامة الإمام علي(ع) وأهل البيت، نسبة الى الناس. ويقول الله تعالى في كتابه حول صدق قول رسوله:

«وَ مَا یَنطِقُ عَنِ الْهَوَی* إِنْ هُوَ إِلّا وَحْیٌ یُوحَی.»[1]

إن الصراط المستقيم، هو صراط الأنبياء وصراط رسول الله(ص) وصراط أهل البيت الذين يتمتعون من حيث التقرب و الولاية، باعلى مرتبة نسبة إلى جميع الكائنات من الأوّلين و الاخرين. و جاء في «سورة يس» قلب القرآن الكريم:

---

١. سورة النجم، الآيتان ٣ و ٤.

«إِنّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ * عَلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ.»[١]

إن مدى قرابة رسول الله(ص) إلى الصفات الكمالية الإلهية والأسماء الالهية، بلغت في رحلة المعراج إلى الحد الذي قال الله تعالى في سورة النجم، الآية التاسعة:

«فَکَانَ قَابَ قَوْسَیْنِ أَوْ أَدْنَی.»

إن القرابة، جعلت النبي الأكرم(ص) موضع خطاب الآية الشريفة:

«إِنّکَ لَمِنَ الْمُرْسَلِینَ * عَلَی صِرَاطٍ مُسْتَقِیمٍ.»

جديرا بمرتبة «صراط الله».

و يعتبر بعض مفسري القرآن ان الآية المباركة لسورة النجم، متعلقة برحلة معراج النبي(ص)، ويرون أنها مرتبطة بقربه المعنوي صلى‌الله على وآله إلى الله تعالى، أي عندما جئ بالنبي الأكرم(ص) إلى المعراج، كانت المسافة بينه وبين الساحة المقدسة لله تعالى، بقدر قوسين أو أدنى، و قد أزيل الحجاب من أمام وجهه. وهذا التعبير هو كناية عن شدة القرب المعنوي للنبي الأكرم(ص). و شدة القرب هذا، تكشف عن ولاية و حق تصرف النبي الأكرم(ص) في جزء وكل شؤون العالم و الخلق.

إن الوصف الذي يعطيه النبي الأكرم(ص) للإمام علي(ع) وهو:

«اَنْتَ اَخی وَ وَصِیّی وَ وارِثی، لَحْمُکَ مِنْ لَحْمی وَ دَمُکَ مِنْ دَمی وَ سِلْمُکَ سِلْمی وَ حَرْبُکَ حَرْبی وَ الإیمانُ مُخالِطٌ لَحْمَکَ وَ دَمَکَ کَما خالَطَ لَحْمی وَ دَمی، وَ اَنْتَ غَداً عَلَی الْحَوْضِ خَلیفَتی وَ اَنْتَ تَقْضی دَیْنی وَ تُنْجِزُ عِداتی ... .»

يكشف النقاب عن القربة و الوحدة بين هذين الانسانين رفيعي المستوى و المقام و بالتالي وِلايته و حق ولايته حول مخلوقات الله تعالى. و لذلك:

---

١. سورة يس (٣٦)، الآيتان ٣ و ٤.

قال الإمام السجاد زين العابدين(ع):

«نَحنُ أبوابَ الله، وَ نَحنُ الصِراط المُستقيم.»[1]

ويمكن درك معنى قول ومفهوم قرابة ووحدة النبي الأكرم(ص) وأهل البيت، فقط في وقت معرفة نورانية محمّد وآلمحمّد(ص) و الحديث عن تقدم الخلقة النورية على الخلقة المادية، وفقا للنظام المعرفي للدين الاسلامي و بالتالي درك مقام ولايته وجدارته لإمامة المسلمين وهداية الخلق للصراط المستقيم.

«يَهْدِى بِهِ اللّهُ مَنِ اتّبَعَ رِضْوَانَهُ سُبُلَ السَّلَامِ وَ يُخْرِجُهُمْ مِنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ بِإِذْنِهِ وَ يَهْدِيهِمْ إِلَى صِرَاطٍ مُسْتَقِيمٍ.»[2]

صفات وكمالات أهل البيت(ع)

وبعد وصف موقع ومقام الإمام علي(ع) و أهل البيت، نسبة إلى حضرة الحق و قربهم واعلان مقامهم وشأنهم السبيل الإلهي و الصراط الإلهي، يتطرق الدعاء إلى مواجهة الإمام علي(ع) للشجرة الملعونة و مقاتلة جيش الناكثين و القاسطين و المارقين، لكي يصف و يقدم مجاهدات ذلك الإمام الهمام، و يبين مصاديق معارضي و معاندي ومبغضي المحمّد(ص).

وهذا البيان المصداقي، يفسح المجال للفصل الدقيق بين أهل الولاية و صبغةالله والشجرة الطيبة و بين أهل الضلالة ولعنةالله والشجرة الملعونة. و يبين دعاء الندبة باختصار ما حل باعلام التقوى وأغصان الشجرة الطيبة، و يبين في طياتها، شؤون هؤلاء الأعلام و أوصياء رسول الله(ص):

---

١. «معاني الأخبار»، ص ٣٥.
٢. سورة المائدة (٥)، الآية ١٦.

اَيْنَ الْحَسَنُ اَيْنَ الْحُسَيْنُ
اَيْنَ اَبْناءُ الْحُسَيْنِ،
صالِحٌ بَعْدَ صالِحٍ،
وَصادِقٌ بَعْدَ صادِقٍ،
اَيْنَ السَّبيلُ بَعْدَ السَّبيلِ،
اَيْنَ الْخِيَرَةُ بَعْدَ الْخِيَرَةِ،
اَيْنَ الشُّمُوسُ الطّالِعَةُ،
اَيْنَ الاَقْمارُ الْمُنيرَةُ،
اَيْنَ الاَنْجُمُ الزّاهِرَةُ،
اَيْنَ اَعْلامُ الدّينِ وَقَواعِدُ الْعِلْمِ،

أوصاف موحدة لمصاديق متعددة، كل مثال الآخر وكل مثال للآخر، ليتضح بانهم جميعا ثمرات شجرة واحدة ونور واحد وهادون يرشدون الناس نحو وجهة ومقصد مضئ و سام.

واستنادا إلى الروايات، فان المعصومين الأربعة عشر يحملون حقيقة واحدة وبتعبير آخر «كُلُّهم نور واحِد.» وكلهم تجسيد كامل للصفات الإلهية وكل حسب الظروف التاريخية والزمنية، تحلوا بمظهر خاص. إن الأئمة هم نور واحد وهذا يعود لسبب أنهم موحدون في الصفات والأفعال والأقوال. إن ما تحقق لأول واحد منهم، يتحقق لآخرهم. وقد بين القرآن الكريم هذه الحقيقة:

«ذُرِّيَّةً بَعْضُهَا مِنْ بَعْضٍ وَاللّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ.»[١]

١. سورة آل عمران، الآية ٣٤.

و رغم أن هذه الآية تعطي توضيحا حول آل عمران، بيد أن الحكم يسري ويستمر بشأن أهل البيت. و بالتالي فان إتحادهم و تواصلهم وصفاتهم المعنوية، هو حصيلة ميزة معنوية مشتركة بينهم، وهي أنهم من نورالله. لذلك نقل في رواية عن الإمام علي(ع) قوله:

«كلنا واحد، أولنا محمّد وآخرنا محمّد و أوسطنا محمّد وكلنا محمّد فلاتفرقوا بيننا.»[1]

وكلام رسول الله(ص) حول الإمام الحسين(ع) إذ قال:

«حُسَيْنٌ مِنّى وَأَنَا مِنْ حُسَيْنٍ.»[2]

وما قاله صلى الله عليه وآله حول فاطمة(س):

«فاطِمَة بَضْعَةٌ مِنّى فمَنْ أَغْضَبهَا فَقَدْ أَغْضَبنى.»[3]

إشارة إلى «النور الواحد» والخلقة النورية لأهل البيت.

آخر مشهد

وبعد هذه التوصيفات التي تظهر كلها مقام ومنزلة المعصومين، يتطرق دعاء الندبة إلى آخر مشهد من الحياة التاريخية للبشرية، وآخر فصل من الحياة ما قبل قيام القيامة الكبرى وآخر ذخيرة إلهية، أي آخر وصيّ لخاتم النبيين(ص) ومن ثم يصف خصائص الإمام المهدي أرواحنا له الفداء.

---

١. «بحارالأنوار»، ج ٣٦، ص ٥.
٢. المصدر السابق، ج ٤٣، ص ٢٦١.
٣. «مأساة الزهراء»، مرتضى العاملي، سيّد جعفر، ج ١، ص ١٥٦.

وخلال دراسة المصادر الروائية، نرى في الأدعية والزيارات، وجود أكثر من ألف اسم ولقب وكنية وخطاب وصفي لولي العصر(ع). وكل هذا يكشف عن الشؤون المختلفة وغير القابلة للعد لحضرة بقية الله الأعظم.

إن هذه العبارات، هي بمثابة إشارة صريحة لمقام الإمامة وواجب الإمام و خصال وصفات الإمام ونسبة الإمام بخالق الوجود، والقرآن الكريم والنبي الأكرم(ص) و سائر المعصومين. و كذلك البرامج الإصلاحية للإمام بعد واقعة الظهور الشريف ودور الإمام في الكون و كرامات الإمام و سائر الشؤون التي هي خارجة عن دائرة دركنا وفهمنا. بعبارة أخرى، فان هذا الجزء من دعاء الندبة، يتيح مجالا واسعا للتعرف على إمام العصر(عج). وهو الذي إن لم يحدث، سيجلب ميتة الجاهلية للبشرية، بحيث أن رسول الله(ص) وبعده المعصومين قالوا:

«من مات و لم‌يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة.»[١]

وقد نقل هذه الرواية عموم علماء الشيعة وأهل العامة.

وبما أن إطلاع ومعرفة المسلمين والشيعة حول حجة الله الحيّ، تقتصر على المعلومات التاريخية البسيطة، فان نسبة ومدى جهوزيتهم و خدمتهم، و توجههم يعود إلى هذا القدر من الوعي والمعرفة.

وقد جعل جمع من الشيعة وفي ظل توجه أحادي الوجه، الإمام في خدمة حاجاتهم، ويرجعون إلى هؤلاء الذوات المقدسة لقضاء حوائجهم الشخصية، ولا يرون للأسف في ضوء هذا الانطباع بأن واجبا وتكليفا يقع على عاتقهم تجاه الإمام.

---

١. «وسائل الشيعة»، ج ١٦، ص ٢٤٦.

وحول معرفة الإمام وضرورة تحصيل المعرفة بشأنه، لابد من التذكير بالنقاط التالية:

١. إن معرفة الإمام تبين حكمة الخلق وسر خلقة الكون ومصيره؛

٢. إن معرفة الإمام تحدد نطاق التولّي والتبرّي في الساحات العقائدية والأخلاقية والعلاقات المادية، وتفرز حدود الحقد والصداقة تجاه الأشخاص الطبيعيين والإعتباريين طوال التاريخ؛

٣. إن معرفة الإمام، تزيل جميع المعاني المجهولة والمزورة المطروحة حول الحياة، وتضفي معنى على الحياة والوجود والعيش في التاريخ؛

٤. إن معرفة الإمام، تشكل الممر الوحيد للإبتعاد عن التلوث والدنس المنطويين على الشرك والنفاق في الميادين العقائدية والأخلاقية والعملية؛

٥. إن معرفة الإمام، توفر إمكانية سلوك مراتب الكمال والقرب إلى الله ومعرفة الله؛

٦. إن معرفة الإمام، توفر إمكانية كشف سر كل العجز والإنفعال والتعاسة التي تطال حياة الانسان؛

٧. إن معرفة الإمام، تميط اللثام عن نسبة مناصبة الأعداء من الجنّ والإنس العداء لحضرته؛

٨. إن معرفة الإمام، تزيح الستار عن الخارطة الإلهية العامة وتحدد المراحل والمراتب من البداية وحتى الوجهة النهائية؛

٩. إن معرفة الإمام، توصل الإنسان إلى أسمى مصدر المعرفة وأركان المعرفة ومراتب المعرفة؛

١٠. إن معرفة الإمام، توفر إمكانية الوصول إلى أكمل نسخة ومصداق للإنسان المرجو والمتكامل؛

١١. إن معرفة الإمام، تضفي وعيا معمقا وحقيقيا على الانسان المؤمن بشأن ما يرضي الله وما هو غير مستساغ ومستحب لديه؛

١٢. إن معرفة الإمام، هي المعرفة بشأن المستمسك و الواسطة و الحبل المطمئن الذي يمكن بواسطته الوصول إلى أعلى مرتبة للقرب إلى الله و التخلص من شرك إبليس و جنوده؛

١٣. إن معرفة الإمام، هي المعرفة حول يد الله، في الأرض والقوة التي ستسحق جملة مصاديق الكفر والشرك والنفاق؛

١٤. إن معرفة الإمام، هي المعرفة حول حجة الله البالغة، والقرآن الناطق والحق المجسد والصراط الأقوم وهي أساس كل الحلال والحرام إلى أبد الآباد؛

١٥. إن معرفة الإمام، هي المعرفة حول الانسان و دوره في الوجود؛

١٦. إن معرفة الإمام، هي المعرفة حول سبب الوجود وكيفة الوجود وسير و سفر الانسان في الوجود في الميادين الثقافية والحضارية المختلفة؛

١٧. إن معرفة الإمام، هي المعرفة حول المهالك التي توصل الانسان إلى دركات الجحيم؛

١٨. إن معرفة الإمام، هي المعرفة حول الدرجات التي توصل الانسان إلى أعلى مرتبة النورانية والقرب التمام والوصل التمام؛

١٩. إن معرفة الإمام، تظهر سر إصابة الانسان بانواع الفرق والنحل والإصابة بالثقافات والحضارات المشركة؛

٢٠. إن معرفة الإمام، هي المعرفة حول تاريخ الغد وفكر الغد والملك الإلهي العظيم الذي يتأسس على يد الإمام بعد ظهوره؛

٢١. وأخيرا فان معرفة الإمام، هي المعرفة حول شرط قبول الأعمال.

ونظرا إلى هذه العناوين، فانه تتضح حقيقة و ضرورة و وجوب معرفة إمام الزمان(ع).

إن «الزيارة الجامعة الكبيرة» و «دعاء الندبة» هما عملان فاخران يوفران باقتضاب، إمكانية الحصول على المعرفة حول حجة الله الحيّ.

وكيف يمكن الوصول إلى عمق هذه المعاني والمفاهيم وعدم البكاء واللطم على الصدور في عزاء البعد والحرمان والخسائر الناجمة عن غيبة حجة الله الحي؟

وكيف يمكن الوصول إلى حقائق كهذه، لكن من دون الإنتظار والمجاهدة للتمهيد للظهور؟

إن التساؤلات المتتالية والبحث بيتا بيتا لدعاء الندبة، لمعرفة الإمام(ع) هي أسئلة حول أوجه ومصاديق الظلم الممارس والجاري في العلاقات بين الناس.

إن الدعاء يلفت من وجهة نظر تساؤلية وناقدة، إنتباه المرء إلى الظروف الظالمة التي يسير فيها، الظروف التي تتطلب معالجتها، الرجوع إلى الإمام وعودة الإمام وزوال ستر الغيبة.

و فيما يخص عصر بنيأمية و بنيالعباس، تميط الأدعية والزيارات، باجمل صورة النقاب عن تيارات وتعاملات وعلاقات العصر، و تستهدف مسببها.

وفي كل عصر وبين كل جيل، فان الحكام والأمراء ومتولي الأمور، وبسبب إنفصامهم وإنفصالهم عن الإمام المبين، يقومون بافساد دنيا وآخرة الناس. ويظهرون البدع ويعطلون السنن الإلهية.

وعندما نقرأ في الدعاء «أين الذي يزيل الانحراف» فان إصبع الإتهام يوجه إلى العامل المسبب للإنحراف. ويستهدف الدعاء، قاتل السنن الإلهية والدين الوحياني و يكشف عن أسس الشرك والنفاق ليفهم المؤمنون بان حياة المؤمنين رهن بالتساؤل و السؤال.

الغفلة عن التساؤل

إن لم يكن تقليد التساؤل يرحل عن الناس، ولم يُترك من بعده تقليد الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ولم يعط الجهاد ضد الظلم والظالم، مكانه لإغتنام الحاضر واللا مبالاة، لما كان أئمة الهداية، يقتلون ولما كان المؤمنون يضرجون بدمائهم ولما كانت الأوجه الثقافية والحضارية للكفر والشرك والنفاق، تبيد وقضي على الحياة الفردية والإجتماعية للمسلمين.

إن التساؤل، كامن في ذات وجوهر الانسان، إن الوجه الذي يميز الإنسان عن الحيوان، هو التساؤل المفكر، وهو مسار الخروج عن الظروف والموقع الذي يسحق الروح ويطلق العنان لجنود ابليس للهيمنة على الساحات المادية والمعنوية.

إن التساؤل هو مقدمة التصرف والتساؤل المفكر، هو مسار للتصرف المصلح.

إن جل اهتمام «دعاء الندبة» منصب على دفع المؤمنين إلى التفكير حول العالم الذي يسيرون فيه و كل ما يحيط بهم. وبما أن تكليف الإمام والولي المنصوب من

قبل الحق، ليس الذهاب نحو الناس، إن ما يدفع الناس للعمل بواجبهم، والتحرك نحو الإمام هو التساؤل.

وقالت السيدة فاطمة الزهراء(س): لقد قال رسول الله(ص):

«مَثَلُ الْإِمَامِ مَثَلُ الْكَعْبَةِ إِذْ تُؤْتَى وَ لَا تَأْتِي.»[1]

إن الناس مكلفون بان يأتوا الإمام ويتحركون حوله. إن الكعبة لا تأتي نحو الناس. إن حقيقة الكعبة، هي الإمام.

إن سر طول أمد غيبة الإمام، يكمن في غياب اهتمام المسلمين و المؤمنين للتحرك والذهاب نحو الإمام. و في كتاب «مهتز و زلق كالهُلام» رصدت فصلا بعنوان «الأمير المحبوس» تحدثت فيه عن الحياة الصحراوية الجافة والملوثة، أي الحياة الحالية للمسلمين، اذ يمكن الرجوع إليه.

إن مثل الناس، كمثل جماعة تورطت في صحراء قاحلة وملوثة، وهم يفكرون بمواصلة البقاء وتسهيل ظروف الصحراء بدلا من العمل على ايجاد مخرج للوضع الطارئ.

إن العيش في عصر غيبة الحجة، هو العيش القسري في صحراء عفنة، لا ماء فيها ولا نبات وان من واجب المسلمين هو العمل وبذل الجهد للخروج من إضطرار الصحراء والنجاة منها.

و في وقت غلبة الثقافة والحضارة الملحدة والمشركة التي ما هي سوى الحياة المادية والثقافية المدنسة، فان المسلمين في «الشرق الإسلامي» قد تخلوا عن المجاهدة، بل يفكرون بالعيش في أجواء هذا المجال العفن والقائم على أسس الشرك

---

١. «بحارالأنوار»، ج ٣٦، ص ٣٥٣.

والكفر والنفاق ويسعون من خلال علمنة الدين وأسلمة الغرب، لتمهيد الظروف السائدة والغفلة عن الحياة الطيبة.

وثمة جماعة تسعى للخروج من هذه البيداء الثقافية والحضارية، تخلت بطيش عن الإمام الهادي والأمين في المحتجز واستندت إلى مفروضاتها لتسعى، و لاتتحدث عن الإمام المحتجز. إن التخلص من الصحراء الحارقة، رهن بدرك ظروف الصحراء والاضطرار الذي يستولي على الحياة الثقافية والمادية للناس، لذلك وكاول خطوة، يتعين السير على خطى الإمام و دعوة الإمام والطلب منه.

إن البحث الواعي والمخلص، رهن بمعرفة الإمام. و من منطلق هذه المعرفة يتضح نطاق ومدى وعمق الحياة الصحراوية القسرية، و يُفهم بان تجاوز هذه الظروف، غير ممكن من دون حضور الإمام ومن دون الإستعانة بالإمام وعمل هذا الإمام المعصوم والمنصب من جانب الحق. و في هذه الحالة، فان الأكلة الصحراوية و بسبب العيش القسري، ستكون بقدر أكل الميتة.

و ربما يمكن القول بان «دعاء الندبة»، يذكرّ المؤمنين بالحالات التالية:

أولاً: إن حياتنا هي العيش في صحراء ملوثة بانماط الظلم والإنحراف و العسف و الشرك و ...؛

ثانياً: إن الشخص الوحيد القادر على فك هذه القيود عن أيدي وأرجل الانسان و تحريره من جملة الفسق والضلال والطغيان والنفاق والظلم، هو الإمام المبين و المنصب من قبل الحق؛

ثالثاً: إن البحث عن الإمام يتطلب بالضرورة التحرر من الذات، فيجب طلبه و تحصيل المعرفة بشأنه والتمسك به والتبرّي من كل ما سواه؛

ومن هنا يمكن القول بان «دعاء الندبة» هو هجوم ذكي على جميع الأسلاك الشائكة التي تعيق تحقق التحول الكبير والفلاح العظيم في عصر الغيبة.

إنه إعلان الكراهية الذكية لجميع العوائق والحواجز التي تعيق معرفة الإمام، و هو حركة متفكرة ومجاهدة للوصول إلى الإمام المبين.

إن كلا من العبارات، تلفت إنتباه النادب، إلى النقص الكبير، وتميط اللثام عن عيب كبير، وتزيح الستار عن الضلال، وتكشف عن الإنحراف والطغيان، وهو ما حل بالبشرية بواسطة جنود ابليس والطواغيت ومن يتبعهم، على اثر الغفلة عن الإمام وغيبة الحجج الإلهية. إن «دعاء الندبة» يظهر في الحقيقة في هذا الجزء، الطبقات المدنسة للحياة الثقافية والحضارية للمجتمعات التي أصيبت بالإنحراف والأمة التي خرجت عن الصراط المستقيم. ليزيد من وعي المسلمين إزاء الخسائر وفداحة أداء الخصم والشجرة الملعونة، ويذكرهم بتكليفهم تجاه الإمام، عسى أن يطلبوا إمامهم بجهوزية تامة و معرفة تامة.

إن من بقي غافلا عن كل هذا، يعتبر أن جميع العلاقات والتعاملات، سليمة وصالحة، وفيما يتحدث عن الإمام وحجة حضرة الحق، فانه مدنس بانواع مصاديق كفر وشرك ونفاق عصره.

و لاشك بان الكفر والشرك والنفاق، يرتدي ملبسا مختلفا في الظروف التاريخية المختلفة، و يواصل حياته الشيطانية و يهاجم المستضعفين. إن درك المفاهيم الرئيسية لهذا الأمر، يتيح مجال التعرف على المصاديق المختلفة للأزمنة المختلفة للمسلمين والمنتظرين.

وإذا ما كان المسلمون قد انتبهوا إلى «الحدود الإلهية» و «السنن و الفرائض» و «الدين و الشريعة» و «الفسق و العصيان» و «الغي و الشقاق» و «الكذب و

الإفتراء»، وكانوا قد درسوا مصاديق كل منها، لما كان الإنحراف والبدعة والتباعد، يتضخم طبقة بطبقة و يصبح معقدا متعدد الأوجه، و لما كان يضيف على نسبة تلوثهم الثقافي والحضاري المتعدد الأوجه.

و من هذا المنطلق، فان المسلمين في عصرنا، شأنهم شأن أهل اليهود و النصارى، يأكلون و يشربون و يتعلمون و يتعاملون و يبنون المدن و يحكمون البلدان، و لاينتبهوا أبدا إلى مبادئ و أسس كل ذلك.

إن هؤلاء في غفلة عن مدى نسبة مبادئ و أسس إعتقاداتهم و معاملاتهم و علاقاتهم المادية، و يتعرفون على موضوع الإمامة و الولاية في أبسط و أضعف طبقة عقائدية و أكثرها قشرية ومنفصلة عن المجالات الثقافية والحضارية.

إن الإمام و حجة حضرة الحق، سيظهر لتحطيم كل البدع و إحياء جميع السنن. إن هذا الجهاد الأكبر يجب أن يتحقق بمسايرة ومؤازرة رجال قبيلة الإيمان والفلاح، إن رجال أهل الإيمان يجب أن يبقوا بعيدين عن صور ودرجات البدع ويستأنسون بالسنن الحسنة.

و ماذا يمكن القول بشأن الشيعة الذين يقيمون هم أصرحة الشرك والنفاق؟ وفي هذه الحالة، هل يمكن إعتبارهم منتظرين ومؤازرين لحجة الله الحيّ؟ وماذا يمكن القول بشأن الشيعة ممن تختلط علاقاتهم الفردية الاجتماعية باسس ومصاديق الشرك و النفاق؟ في حين أن الإمام يتصرف منذ الساعات الأولى من الظهور، ضد هذه الأسس والمصاديق ويحطمها كلها، بل أنه يبغض في الوقت الحاضر كل ذلك و يعرض عنه. و كم مؤسف أن الكثير من كل هذا يحدث بين المسلمين، باسم الله وباسم الدين وباسم الإمام المبين.

الفصل الثامن: فصل الظهور

يمكن فقط من خلال تحديد حدود وثغور أوامر «كتاب الله» و «عترة الله» و المواظبة على تجنب الظلم ومصاديق العمل الظالم، عزل صفتنا عن صفة الظالمين، مثلما أنه يمكن من خلال الإنكار والتبري من أهل الضغينة و الإلحاد و الضلال، سلوك طريق العدالة و اعتبار أنفسنا منتظري المصلح الكبير و الإعلان:

اَيْنَ قاصِمُ شَوكَةِ الْمُعْتَدينَ؛
اَيْنَ هادِمُ اَبْنِيَةِ الشِّرْكِ وَ النِّفاقِ؛
اَيْنَ مُبيدُ اَهْلِ الْفُسُوقِ وَ الْعِصْيانِ وَ الطُّغْيانِ؛
اَيْنَ حاصِدُ فُرُوعِ الْغَيِّ وَ الشِّقاقِ (النِفاقِ)؛
اَيْنَ طامِسُ آثارِ الزَّيْغِ وَ الاَهْواءِ؛
اَيْنَ قاطِعُ حَبائِلِ الْكِذْبِ (الكَذِبِ) وَ الاْفْتِراءِ؛

وكل سؤال، هو بمثابة ضربة تطال جدران غفلتنا وتقاعسنا؟ تذكير لكي نعلم باننا نعيش من دون إمام. وربما نسأل أنفسنا: هل أن قراءة الندبة، من دون جهوزية ومعرفة، هو مصداق تام ل «لعن الذات»! وأي انسان عاقل يستطيع أن يلعن نفسه بهذه العبارات؟

إن هذه العبارات، تكشف أبعاد الحركة و الثورة الكبرى لحضرة بقية الله الأعظم(ع)، لكي يقف قراء الندبة على واجبهم في هذا الميدان، و للنهوض من أجل تطهير حياتنا الثقافية والحضارية طبقة طبقة و التنزه عن المنكرات.

و العبارات اللاحقة، تبين الوجه الإيجابي لحركة المصلح الكبير، إمام الصالحين، المهدي الموعود(ع).

وهذا الفصل يرشد كمعلم حكيم وعالم، المتعلم حول كيفية التفكير والعمل والتصرف في الوجود.

اَيْنَ مُعِزُّ الاَوْلِياءِ وَ مُذِلُّ الاَعْداءِ؛

اَيْنَ جامِعُ الْكَلِمَةِ (الكَلِمِ)عَلَى التَّقْوى؛

اَيْنَ بابُ اللهِ الَّذى مِنْهُ يُؤْتى؛

اَيْنَ وَجْهُ اللهِ الَّذى اِلَيْهِ يَتَوَجَّهُ الاَوْلِياءُ؛

اَيْنَ السَّبَبُ الْمُتَّصِلُ بَيْنَ الاَرْضِ وَالسَّماءِ؛

اَيْنَ صاحِبُ يَوْمِ الْفَتْحِ وَ ناشِرُ رايَةِ الْهُدى؛

و يقول الإمام علي(ع) في عبارة من كلامه الرفيع في «نهج البلاغة» حول أحد واجبات و إجراءات الإمام المهدي(ع):

(إذا ظهر المهدي(ع)) «يَعْطِفُ الهَوَى عَلى الهُدَى، إِذَا عَطَفُوا الهُدَى عَلَى الهَوَى، وَ يَعْطِفُ الرَّأىَ عَلَـى القُرآنِ إِذَا عَطَفُوا القُرآنَ عَلَـى الرَّأىِ.»[1]

وهذا الكلام السامي، يعكس الإنحراف عن المصدر النظري لحضرة الحق وحجته البالغة، وحلول الهوى والهواجس محله.

---

١. «بحارالأنوار»، ج ٥١، ص ١٣٠؛ «نهج البلاغة»، الخطبة ١٣٨.

إن تاريخ البشرية هو تاريخ التخلي عن الحجة الثابتة لحضرة الحق و«القرآن والعترة» والتوجه نحو الحجج غير الإلهيين. لذلك فان تاريخ البشرية، هو تاريخ التلون والتغير وابتلاء أبناء البشرية بمجموعة من الحوادث و الهواجس، و كأن البشرية و مجمل العلاقات الفردية و الجماعية أصبحوا على اثر الإعتزال عن المنشأ الإلهي، كقشة طافية على الأمواج الهائجة لبحر الهواجس والحوادث، لكي ينهار مجمل المرارات والصعاب والتحديات على جسد البشرية و روحها.

وكلما يمضى على تاريخ الإبتعاد والغيبة، كلما تزداد سماكة الطبقات السوداء للإبتعاد، لدرجة أنه لايبقى اثر عن حقيقة التدين، والبقاء بعيدا عن شمس الحقيقة و خلف ستائر الغفلة والغيبة، وتحمل معاناة الإنتظار التي يعلم الله وحده عمقها و وسعتها. إن الحجة الإلهية تجمع البشرية حول قطب كلمة التقوى الثابت، بينما يجمع الحجج غير الإلهيين البشرية حول التفرق والتشتت والشقاق والتعاسة.

وفي اليوم الذي اعتكف فيه الإمام خلف ستار الغيبة، إغلق باب الله بوجه البشرية، في حين قادت أبواب المذلة والضلالة، البشرية إلى دركات الفلاكة. إن النفس اللئيمة واللعينة والجشعة لأرباب الدنيا وأئمة الكفر، ألقت بشباكها على رقاب البشرية، لكي ينصب كل اهتمام وانتباه مجتمع المستضعفين نحو الهوى والهواجس ويبقى محروما من تجربة نورانية أئمة الدين.

«اَيْنَ ابْنُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفى.»

وعلى الرغم من أن الكاتب، لا يرى أنه وقدراته ومعرفته مؤهلين لكشف ودرك عبارات هذا الدعاء الشريف المنقول عن الإمام المعصوم(ع)، لذلك فانه لا ينتقل إلى ضفافه وحتى هوامشه، بل أنه يقدم إنطباعه العام والكلي عن هذا الدعاء ويبين ما

يجري في الميدان الثقافي والحضاري والذي يمكن النظر إليه من هذا المنظار، ليأتي على ذكر بعض النقاط.

ويلفت «الدعاء» إنتباه صاحب الندبة في جانب اخر إلى الترابط والتواصل التام لأهل بيت النبي الأكرم(ص) بمثابة نور واحد و يفتح نوافذ على المقامات المعنوية و النورية لهذه الذرية ويتوجه إلى حضرة ولي العصر(ع) ليعتبر أنه عليه السلام وارثها وصاحب جميع المقامات النورية والصفات الإلهية المتعالية. ليكون بذلك قد أبعد بهذه الأوصاف الدقيقة والتصنيف اللطيف، جميع المدعين والمتشدقين عن ساحة هذه الذرية المكرمة، ويقدم هذه الذرية على أنها متطابقة ومتناسبة مع ما يريده الله تعالى ويجعلها في مجموعة الأولياء الإلهيين وفي شأن «خطاب الولاية» وحافلة بجميع الصفات المتعالية على أتم شكل. ويقول رسول الله(ص):

«أوّل ما خَلَق الله نورى.»[١]

ليكون بذلك صلى الله عليه وآله وسلم قد قدم الحقيقة المحمّدية والنور الأحمدي كأول مخلوق وأشرف الخلائق والأولى نسبة إلى جملة المخلوقات، وعرف صاحب هذا المقام بانه النور والصراط المستقيم نحو النور. وجاء في «دعاء النور» عن قول النبي الأكرم(ص):

«بِسْمِاللهِ الّذى خَلَقَ النُّورَ مِنْ النُّورِ، الْحَمْدُلله الّذى خَلَقَ النُّورَ مِنَ النُّورِ.»

وقد خلق الله تعالى كائنا، قبل خلقه سائر الكائنات، بحيث أنه بعد الذات الإلهية، يحظى بتلك الطاقة التي توظف في وجوده كل القدرة الإلهية، أي أن هذا المخلوق هو يدالله و قدرة الله وعينالله و قوةالله و...، وأن يملك طاقة جميع العلوم ومعرفة الوجود لكي يكون بوصفه الصراط المستقيم، أكبر آية لله ومؤشر على عظمة الله المتعال.

---

١. «بحارالأنوار»، محمّدباقر المجلسي، ج ١٥، ص ٢٤.

إن هذه الطاقة الهائلة تجعله يحظى باعلى درجة من معرفة الله و أسمى مرتبة من الصفات الكمالية. أن هذه الدرجة من القرابة و القرب إلى الله الواحد الأحد وأن هذه المرتبة من الصفات الكمالية تقدم أهل بيت النبي الأكرم(ص) على أنهم أناس متكاملين. و في ظلال ذلك النور الأعظم، فان هؤلاء الذوات المقدسة يتصفون بالصفات الإلهية ويتخلقون بالأخلاق الإلهية الحسنة. إن هؤلاء في الحقيقة هم مخلوقات وكائنات وعباداالله المتكاملين يتصرفون بواسطة القرب إلى حضرة الحق، كوسيط بين الخالق والمخلوق.

و دخل جابربن عبدالله الأنصاري على النبي الأكرم(ص) في آخر أيام حياته فسأله عن هذه الآية الكريمة:

«وَ جَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا وَ أَوْحَيْنَا إِلَيْهِمْ فِعْلَ الْخَيْرَاتِ وَ إِقَامَ الصَّلَاةِ وَ إِيتَاءَ الزَّكَاةِ وَ كَانُوا لَنَا عَابِدِينَ.»[1]

فقال النبي الأكرم(ص) ما مضمونه إن القصد من هذه الآية هم الأوصياء من بعدي. فيأتي يوم ترى فيه إبني محمّدالباقر وتدرك زمانه. بلغ سلامي اليه، إن اسمه اسمي و علمه علمي وحكمته حكمتي واشبه الناس الي وأبناؤه السبعة هم من افضل الناس وهم من الائمة المعصومين وابنه السابع المهدي، يهدي امتي. وهو يملأ الأرض قسطا وعدلا بعدما ملئت ظلما وجورا.

ويقول جابر: وبعد أن مرت عدة أعوام على ذلك، دخلت يوما على الإمام الباقر(ع) واخبرته بما قاله رسول الله(ص) وقد أيد عليهالسلام كل ذلك.[2]

---

١. سورة الأنبياء (٢١)، الآية ٧٣.
٢. «تفسير البرهان»، ج ٢، ص ٤٢٩.

إن الله تعالى وبسبب هذا الشرف الذاتي، اعتبر أهل البيت بانهم حملة وورثة كتابه ومن المصطفين من عباده:

«ثُمَّ أَوْرَثْنَا الْكِتَابَ الّذِينَ اصْطَفَيْنَا مِنْ عِبَادِنَا فَمِنْهُمْ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ وَ مِنْهُمْ مُقْتَصِدٌ وَ مِنْهُمْ سَابِقٌ بِالْخَيْرَاتِ بِإِذْنِ اللّهِ ذَلِكَ هُوَ الْفَضْلُ الْكَبِيرُ.»[1]

وتتطرق هذه الآية إلى حملة وورثة «القرآن»، أولئك الذين حافظوا على هذا الشعلة المستنيرة على مر الزّمان و القرون بعد نزول القرآن على قلب النبي(ص).

و يقول الإمام الرضا(ع) حول هذه الآية وورثة القرآن:

«ولد فاطمة عليها السلام، والسابق بالخيرات الامام، و المُقتَصِد العارف بالامام، و الظالم لنفسه الذى لا يعرف الامام.»[2]

وبهذه المقدمة نعود إلى فقرات من «دعاء الندبة»:

اَيْنَ ابْنُ النَّبِيِّ الْمُصْطَفى، وَ ابْنُ عَلِيٍّ الْمُرْتَضى، وَ ابْنُ خَديجَةَ الْغَرّآءِ، وَ ابْنُ فاطِمَةَ الْكُبْرى؛

بِاَبى اَنْتَ وَ اُمّى وَ نَفْسى لَكَ الْوِقاءُ وَ الْحِمى؛

يَابْنَ السّادَةِ الْمُقَرَّبينَ؛

يَابْنَ النُّجَباءِ الاَكْرَمينَ؛

يَابْنَ الْهُداةِ الْمَهْدِيّينَ؛

يَابْنَ الْخِيَرَةِ الْمُهَذَّبينَ؛

يَابْنَ الْغَطارِفَةِ الاَنْجَبينَ؛

---

١. سورة فاطر (٣٥)، الآية ٣٢.
٢. «أصول الكافي»، ج ١، ص ٣١٢.

يَابْنَ الاْطائِبِ الْمُطَهَّرِينَ، يَابْنَ الْخَضارِمَةِ الْمُنْتَجَبِينَ، يَابْنَ الْقَماقِمَةِ الاْكْرَمِينَ؛
يَابْنَ الْبُدُورِ الْمُنيرَةِ، يَابْنَ السُّرُجِ الْمُضيئَةِ، يَابْنَ الشُّهُبِ الثّاقِبَةِ، يَابْنَ الاْنْجُمِ الزّاهِرَةِ؛

...

يَابْنَ الْمَعالِمِ الْمَأْثُورَةِ، يَابْنَ الْمُعْجِزاتِ الْمَوْجُودَةِ، يَابْنَ الدَّلائِلِ الْمَشْهُودَةِ، يَابْنَ الصِّراطِ الْمُسْتَقيمِ،
يَابْنَ مَنْ دَنا فَتَدَلّى فَكانَ قابَ قَوْسَيْنِ اَوْ اَدْنى دُنُوّاً وَاقْتِراباً مِنَ الْعَلِيِّ الاْعْلى؛

إن من يقرأ «دعاء الندبة» يصل بمدده إلى أعمق طبقات المعرفة حول النبي الأكرم(ص) وأهل بيته الأطهار. ومن هنا يعرف من فقد ومن يجلس منتظرا وراء ستار الغيبة!

إن أداؤنا حول ولي العصر(عج) يعود دائما إلى توجهنا بشانه ومعرفتنا. إن الغفلة وترك الأدب ومحورية الذات وعدم رجوعنا إليهم واعتمادنا على أناس ضعفاء وأذلاء، كأمثالنا واختيارهم يعود إلى عدم معرفتنا بالمنتجبين من قبل الله من بين أهل بيت النبوة.

وعندما تميط هذه الفقرة من دعاء الندبة، اللثام عن الطبقات التحتية، يعرف قارئ الدعاء مدى المسافة التي تفصله عنهم. ويعرف عن أي جوهرة ثمينة حُرم، ويعرف بالتالي عمن يبحث. وهنا يقول منتحبا نادبا:

لَيْتَ شِعْرى اَيْنَ اسْتَقَرَّتْ بِكَ النَّوى؛
بَلْ اَيُّ اَرْض تُقِلُّكَ اَوْ ثَرى، اَبِرَضْوى اَوْ غَيْرِها اَمْ ذى طُوى؛
عَزيزٌ عَلَيَّ اَنْ اَرَى الْخَلْقَ وَ لاتُرى وَ لااَسْمَعُ لَكَ حَسيساً وَ لانَجْوى؛

عَزيزٌ عَلَيَّ اَنْ تُحيطَ بِکَ دُونِیَ الْبَلْوی وَ لا یَنالُکَ مِنّی ضَجیجٌ وَ لا شَکْوی؛

بِنَفْسی اَنْتَ مِنْ مُغَیَّبٍ لَمْ یَخْلُ مِنّا؛

بِنَفْسی اَنْتَ مِنْ نازِحٍ ما نَزَحَ عَنّا؛

بِنَفْسی اَنْتَ اُمْنِیَّةُ شائِقٍ یَتَمَنّی، مِنْ مُؤْمِنٍ وَ مُؤْمِنَةٍ ذَکَرا فَحَنّا؛

بِنَفْسی اَنْتَ مِنْ عَقیدِ عِزٍّ اَیُسامی؛

بِنَفْسی اَنْتَ مِنْ اَثیلِ مَجْدٍ لا یُجاری؛

بِنَفْسی اَنْتَ مِنْ تِلادِ نِعَمٍ لاتُضاهی؛

بِنَفْسی اَنْتَ مِنْ نَصیفِ شَرَف لایُساوی؛

اِلی مَتی اَحارُ فیکَ یا مَوْلایَ وَ اِلی مَتی، وَ اَیَّ خِطابٍ اَصِفُ فیکَ وَ اَیَّ نَجْوی؛

عَزیزٌ عَلَیَّ اَنْ اُجابَ دُونَکَ وَ اُناغی؛

عَزیزٌ عَلَیَّ اَنْ اَبْکِیَکَ وَ یَخْذُلُکَ الْوَری.

إن دعاء الندبة، يذكّر قارئ الدعاء بمفهوم الإضطرار ومباشرة الخروج عن الذات والإنقطاع عن الأغيار؟ لذلك يجب القول بان «دعاء الندبة» هو ألطف سبيل لتجربة القرب والإقتراب إلى حضرة مولانا صاحب الزمان(عج).

درك الإضطرار والخروج عن الذات وبالتالي الإنقطاع عن الأغيار.

و من هنا تُشاهد كل الحُجب وتزول كل الحواجز.

و هل نظرتم إلى الأدعية والحاجات التي لم تقض؟

و عندما تُرفع الأيدي المضطرة إلى السماء تاركة ما سوى الله و تبتهل إلى الباري كالغريق الذي يواجه طوفانا، فتصل يد المُغيث و المجيب و تنقذ الغريق من كل هذا البلاء و الإبتلاء.

«أَمَّنْ يُجيبُ الْمُضْطَرّ إِذا دَعاهُ وَ يَكْشِفُ السُّوءَ.»[١]

إن الإضطرار هو حالة باطنية، في وقت لايملك فيه الانسان أي وسيلة و ملاذ للنجاة وحل مشاكله، وينقطع أمله عن كل مكان وموقع. و في هذه الحالة فحسب يتذكر من أعماق وجوده، المنقذ والمنجي الحقيقي، أي الله الرّحمن الرّحيم، و يطلب منه في إتصال تام، النجاة و الخلاص.

وورد في رواية أن رجلا دخل على الإمام الصادق(ع) فقال:

يابن رسول الله! عرف لي الله كم هو!

فقال عليه السلام: هل ركبت مركبا الى الان؟

فقال: نعم!

فقال عليه‌السلام: هل تحطم مركبك بحيث لم يكن هناك مركب اخر و لاسابح ينقذك؟

فقال: نعم

فقال عليه السلام: وهل ارتبط قلبك في تلك الحال بشئ ما، يكون قادرا على انقاذك من هذه المهلكة؟

فقال: نعم

فقال الامام عليه‌السلام: هذا هوالله القادر على الإغاثة والنجاة، في وقت لايوجد فيه أي منقذ ومغيث.

وفي وقت تجربة الإضطرار وانقطاع الأمل عن جميع الأسباب، فان المضطر يرفع يده داعيا ويطلب من خلال اتصال قوي ومتين، خلاصه وإنقاذه، وهنا يصل المدد والخلاص طبعا.

---

١. سورة النمل (٢٧)، الآية ٦٢.

وقد حث الإمام المهدي(عج) في رسالة كتبها إلى محمّدبن عثمان، الناس على الدعاء للتعجيل في الفرج.

هَلْ مِنْ مُعينٍ فَأُطيلَ مَعَهُ الْعَويلَ وَالْبُكاءَ؛

هَلْ مِنْ جَزُوعٍ فَأُساعِدَ جَزَعَهُ اِذا خَلا؛

هَلْ قَذِيَتْ عَيْنٌ فَساعَدَتْها عَيْنى عَلَى الْقَذى؛

هَلْ اِلَيْکَ يَا بْنَ اَحْمَدَ سَبيلٌ فَتُلْقى؛

هَلْ يَتَّصِلُ يَوْمُنا مِنْکَ بِعِدَةٍ فَنَحْظى؛

مَتى نَرِدُ مَناهِلَکَ الرَّوِيَّةَ فَنَرْوى؛

مَتى نَنْتَقِعُ مِنْ عَذْبِ مائِکَ فَقَدْ طالَ الصَّدى؛

مَتى نُغاديکَ وَنُراوِحُکَ فَنُقِرَّ عَيْناً؛

مَتى تَرانا وَنَراکَ وَقَدْ نَشَرْتَ لِواءَ النَّصْرِ تُرى؛

اَتَرانا نَحُفُّ بِکَ وَ اَنْتَ تَأُمُّ الْمَلاَ وَ قَدْ مَلأْتَ الاَرْضَ عَدْلاً وَ اَذَقْتَ اَعْداءَکَ هَواناً وَ عِقاباً، وَاَبَرْتَ الْعُتاةَ وَ جَحَدَةَ الْحَقِّ، وَقَطَعْتَ دابِرَ الْمُتَکَبِّرينَ، وَ اجْتَثَثْتَ اُصُولَ الظّالِمينَ، وَنَحْنُ نَقُولُ الْحَمْدُلله رَبِّ الْعالَمينَ، اَللّـهُمَّ اَنْتَ کَشّافُ الکُرَبِ وَ الْبَلْوى، وَ اِلَيْکَ اَسْتَعْدى فَعِنْدَکَ الْعَدْوى؛

وَ اَنْتَ رَبُّ الاْخِرَةِ وَالدُّنْيا، فَاَغِثْ يا غِياثَ الْمُسْتَغيثينَ ... .»

و بعدها، يبتهل قارئ الدعاء، إلى الله تعالى طالبا منه أن ينصر الإمام المبين.